

شَرَحَ الصَّلَاةَ

لَتَفْسِيرِ سُورَةِ النُّورِ



تألیف شیخ

محمد بن ابراهيم بن عبد الجبار

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

شرح الصدور



لتفسير سورة النور

تأليف الشيخ

محمد بن إبراهيم سبيح كعباني

نشر جمعية النهضة

العطف - غرداية - الجزائر

2007-1428

طبع : المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد - غرداية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا

آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

(سورة ص: آية ٢٩)

صدق الله العظيم

ترجمة المؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـ (كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف (تاجنيت).

أبصر نور الحياة خلال ١٩٢٩م في حضان أبوين كريمين: سعيد ابراهيم بن باحمد، وبمون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنٍّ مبكرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاء لامعاً، ولم يكن كتاب قرّيته يُقنّع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة ١٩٩٠م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضواً رسمياً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة ١٩٥٨م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة ١٩٧٠م، وهو ما يزال يقوم بمهمته النبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليّة لمعاني كتاب الله وسنة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أو انحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرف بعضوية منظمة المجاهدين دون من ولا غرور، وهو متزوج وأب لتسعة أولاد، وفقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه مباركاً للتدبر، وجعل من آياته
 باعثاً للتذكر، نحمده حقّ حمده، ونشكره على نعمه ولا نخصي
 ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه، نشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة وبَلَغَ
 الرسالة ونصح الأمة وعبد ربّه حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه
 وعلى آله وصحابه أجمعين وبعد:

فقد بدأت -بتوفيق الله- دروسي في الوعظ والإرشاد
 للمجتمع النسوي في دور خاصة ببلدة العطف من منتصف العقد
 الخامس من القرن العشرين، وركزت عنايتي خاصة برَبّات البيوت
 لما رأيت فيهن من الجهل المطبق حتى لأبسط الواجبات الدينية،
 كحفظ السور الصغرى من القرآن مما تتطلبه أقوال الصلاة،
 فكيف بفهمها وتدبر معانيها؟.

فأريت من أؤكد واجباتي أن أشرح في تفسير السور الصغرى
 لمن بطريقة تناسب مستواهن، ومع التركيز والمداومة أخذن في
 التحاوب معي رويداً رويداً، فتدرجت إلى تفسير سورة الأنعام،
 لأن الجمهور كان يحفظها بحكم تلاوتها في كل مناسبة، ثم عملاً

بما جاء في الأثر: «عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ التَّوْرِ».^(١)

اخترت لموسم رمضان من سنّي ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م تفسير سورة التّور على منبر المسجد الجامع بعد أن أصبحت عضوا رسميا في حلقة العزابة مكلفا بإمامة الجمعة وبالوعظ والإرشاد والفتوى.

وبالموازاة لذلك شرعت في تفسير القرآن على ترتيب سور المصحف الشريف بدءا بسورة الفاتحة منذ ١٩٦٩م، وقد وفقني الله لتأليف تلك الدّروس كلّها في أجزاء بعنوان: "نفحات الرّحمان في رياض القرآن".

وما أزال أتابع تلك الدّروس إلقاء وتأليفا، وانتهى بي المشوار اليوم إلى سورة طه. وما هذا الجزء الذي أقدمه للقراء الكرام بعنوان: "شرح الصدور لتفسير سورة التّور" ما هو في الحقيقة إلا جزء مسبق لأجزاء التفسير المذكور، أرجو من المولى العليّ التقدير أن يمدّ في الأجل حتى أصله بما سبقه من الأجزاء.

١- أورده القرطبي عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أهل الكوفة: "علموا نساءكم سورة النور"، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "علموهن سورة النور والغزل".
الجامع لأحكام القرآن: ١٥٨/١٢.

وبعد: لم أكن أول من خصّ سورة النور بتفسير مستقلّ، فقد سبقني إلى ذلك كثير من العلماء ومن أبرزهم الأستاذ الجليل أبو الأعلى المودودي في كتابه "تفسير سورة النور" والذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد عاصم الحداد.

وحسب هذه السورة الكريمة شرفاً وقدرًا أن يكون اسمها من نور الله الذي أشرقت له السماوات والأرض وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، إنه النور المبين، هدى ورحمة وشفاء للعالمين.

وفي بيان أهمية هذه السورة الكريمة يقول الأستاذ المترجم ما نصّه:

"إن الأحكام والتعاليم السامية التي تشتمل عليها سورة النور في القرآن الكريم هي بمثابة حجر الأساس لحياة المسلمين الخلقية والاجتماعية، وأنه لا بدّ -على هذا- أن يكون على معرفة بها كل فرد من أفرادهم، ويزول عن ذهنه ما يوجد حولها في أذهان الطبقة المثقفة اليوم بالثقافة الغربية الجديدة من الشبهات".^(١)

فأرجو من الله لكل قارئ لهذا التفسير أن يشرح صدره لتبوع

ما ورد فيه من البيان والإيضاح، وأن يتجاوب معه بما يعود عليه بالخير والصّلاح، ففي هدي كتاب الله وسنة رسوله ما يغنيا عن كلّ تلفيق أو اقتباس من القوانين الوضعية ذات اليمين أو ذات اليسار، فاللّهم اسلكنا في عداد المتقين الأبرار.

العطف يوم: الجمعة ١٤ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ / ٢٩ جوان ٢٠٠٧م.

بين يدي السورة

من الثابت المجمع عليه بين علماء الأمة أن ترتيب سور القرآن وآياته توقيفي عن رسول الله بإرشاد من الله تعالى.

وسورة النور مدنية وهي المائة في ترتيب نزول سور القرآن وعدد آياتها أربع وستون، سميت بـ"النور" لما ورد في الآية الخامسة والثلاثين من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولعظم شأنها وبلاغة إرشادها وآثار أحكامها في صيانة الأسرة المسلمة فقد ورد في الأثر: «عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ».

وأبرز حادثة فيها هي حادثة الإفك التي روجها المنافقون على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وما ترتب عنها من خلخلة واضطراب في الجماعة المسلمة، وهو الهدف الذي يقصده المنافقون، وبما أن القصة وقعت بعد غزوة بني المصطلق، فإن الروايات قد اختلفت في زمن وقوعها في سنة خمس قبل غزوة الأحزاب أم في سنة ست بعدها؟.

والذي يراه المحققون استنادا إلى بعض الروايات واستنطاقا للأحداث التاريخية المكتنفة لحادثة الإفك أن غزوة بني المصطلق قد

وقعت لسنة ستّ بعد غزوة الأحزاب، ذلك أن أعداء الإسلام بعد خيبتهم من القضاء على الإسلام في عقر داره بالمدينة المنورة، بعد ما أحكموا خططهم وجمعوا أحلافهم لغزوة الأحزاب، تيقنوا أن لا قبل لهم بردع القوة الإسلامية الفتية بالقوة العسكرية وحدها، بل عليهم أن ينتهجوا أسلوباً آخر من الدس والكيد وحرب الإشاعة ليفجّروا الوضع الداخلي المتماسك في الجماعة المسلمة، وقد تولّى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول مع رهط من قومه تولّوا كبر القضية فخبّوا ووضعوا، ومن المفارقات العجيبة أن يكون ضمن صفوف المسلمين في غزوة بني المصطلق حيث تقع حادثة ملاحاة أدت إلى اقتتال بين رجلين، أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار فاستصرخ كل واحد منهم بقبيله فتلاسن القوم، فغضب لذلك ابن أبي فقال قولته المشهورة: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨).

ومن نماذج حرب الإشاعة قبل ذلك زواج الرسول بزوج متبنّاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش رضي الله عنها إذ أشاع بأن الرسول وقع في غرامها ما دفع زيد إلى تضيقها ليتزوجها الرسول، ويكفّر بذلك قد تزوج بحليلة ابنه. وحاشا لرسول الله أن يفعل ذلك وهو الزكيّ المعصوم ولكنها إرادة الله وحكمته في

التشريع، عندما قضى بذلك لرسوله حتى يكون قدوة للمسلمين في إلغاء ظاهرة التبني فقال عزّ من قائل: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وثالثة الأثافي التي نصبها عبد الله بن أبيّ حادثة الإفك التي كانت أشدّ إيذاء لرسول الله وصاحبه الصديق، وأكثر تشويشا وتحريشا للجماعة المسلمة، وسوف نذكرها في موقعها من السورة الكريمة، والذي جعل عبد الله بن أبيّ ينطوي على هذا الحقد لرسول الله وجماعته هو تفويت فرصة تتويجه ملكا على المدينة عندما حلّ بها رسول الله لتصبح منورة بنور التبوء ومختارة لأن تكون مهذا وحصنا للدولة الإسلامية.

فقصة الإفك -إذن- هي المحور الذي تدور حوله الأحكام والإرشادات الواردة في السورة الكريمة لصيانة الأسرة ورعايتها، وهي متكاملة مع الأحكام الواردة في سورة النساء، والتي اهتمت بالبناء الأساسي للأسرة وكيف يرمّم ما ينصدع منه بدافع العشرة ونوازعها، وسنقف -بحول الله- عند كل حكم تناولته السورة بالبيان والتفصيل، وبالله التوفيق.

ميزة سورة التور وفضلها

(أ) - النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُورَةُ التَّوْرَةِ أَنْزَلْنَاهَا
وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿سُورَةٌ﴾: هي الجزء المعين من القرآن بعدد آياته بداية ونهاية بإرشاد من رسول الله. ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾: أسند الإنزال والفرض إلى الله تعالى ليدل ذلك على عظم شأنها، و"فرضناها" بمعنى أوجبنا العمل بها على اعتبار ما ورد فيها من الأحكام، أو بمعنى التعيين والتقدير كما ثبت ذلك في علم الله، وهذا المعنى لمحمل معانيها من أحكام وغيرها. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات المعنى، لتكون مبعث التذكر والعظة، ولعل في تسميتها بالنور وهو مأخوذ من نور الله الذي أشرق به السماوات والأرض، لعل في ذلك ما يدل على التنويه البالغ بهذه السورة حتى يؤليها المسلمون ما تستحقه من الاهتمام والعناية في تطبيق أحكامها.

ج) - البيان والتفسير:

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ مقدمة مشوقة لما يتلوها من الآيات التي هي كلها أجزاء لهذه السورة، وهي مخفوفة بالقوة والعظمة لما وصفت به من الإنزال والفرض من لدن الحكيم الخبير القوي القاهر الذي يعلم ما يصلح بشؤون عباده، إذ يفرض عليهم تلك الأحكام التي تحتوي عليها السورة حتى تكون ملزمة لهم في شؤون حياتهم، يطبقونها بقوة وفعالية، وهي كلها لها الطابع الإلزامي، تنتظم الحياة الفردية والاجتماعية، وإن يبدو البعض منها من قبيل الآداب الاجتماعية التي تخضع لظروف الزمان والمكان، فما كان للمؤمنين أن تكون لهم الخيرة من أمرهم في ما يقضي الله ورسوله، بل هم يقولون سمعنا وأطعنا كما وصفهم الله بذلك في أواخر السورة، وتكرار جملة: ﴿وَأَنْزَلْنَاهَا﴾ للسورة وآياتها للتأكيد على الاعتناء بالسورة جملة وتفصيلاً بما تشتمل عليه من الإرشادات والتوجيهات، فهي آيات بينات لا لبس فيها ولا غموض، تبعث على التذكر والعظة.

فإذا كانت سورة النساء قد اهتمت بالبناء الأساسي للأسرة المسلمة، فإن سورة النور تضرب السياج الواقعي لها من كل ما يهز

أركانها من الدّاخل أو الخارج، وتفرض الآداب السلوكية للفرد المؤمن وهو يعيش بين أحضان الأسرة زوجا أو ابنا أو خادما، أو تربطه بالأسرة علاقة الجوار والتعايش في المجتمع الواحد، وتحتث جذور الفاحشة إذا ما استعلن شرّها وثبتت ممارستها ثبوتا شرعيا لا لبس فيه، ثم تسدّ الذريعة أمام الوقعة في العرض والشرف بأحكام زاجرة حسّا ومعنى بجلد القاذف وردّ شهادته، وتربط كل ذلك بإذعان المؤمن وطاعته لله ورسوله، وأن الله له ملك السماوات والأرض وهو بكل شيء عليم.

والتعقيب بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هو لإلهاب المشاعر والتحريض على الفهم والتدبر في ما شرعه الله من الأحكام وسنه من الآداب، والله أعلم.

حدّ الزنى، وموقف المؤمنين منه

أ- النص:

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾: اسم فاعل من فعل زنى يزني، دخلت "أل" الجنسية عليه، فهو يفيد تحقق الوصف في الموصوف لا غير، أي كل من اتصف بالزنى سيدا كان أو عبدا، محصنا أو غير محصن. ﴿فاجلدوا﴾: الضرب بالسوط على الجلد، أي البشرة، كما يقال: بطنه وجهه ورأسه، إذا ضربه في تلك الأعضاء. ﴿رأفة﴾: الإحساس بالشفقة والرحمة ينشأ عند مشاهدة ضرر بالمرؤوف. الزنى والبيغاء ويقال: الزنا من فعل زاني بصيغة المفاعلة، ويخفف همزة فيكون مقصورا. الزنا: وهو كل اتصال غير شرعي بين رجل وامرأة، فإن تم ذلك بعوض فهو البيغاء. ﴿طائفة﴾: جماعة من الاثنين فصاعدا، ولا يقال للواحد طائفة.

ج) - البيان والتفسير:

كل الشرائع قديما وحديثا وكذا مختلف الحضارات تتفق على شناعة الزنا وحرمة فهو ذنب وفاحشة دينيا، ورذيلة خلقيا، وعيب وعار اجتماعيا، ذلك لأن كرامة الإنسان وطابعه التمدني

تتافي ارتكاب هذه الفاحشة التي تقوّض بناء الأسرة القائم على أساس الوفاء والإخلاص بين الزوجين، وعلى أساس التعاون والتكامل في حفظ النسل وطهارة الأنساب، ذلك ما تقتضيه الفطرة الإنسانية السليمة، ولا عبرة بوجود الشّواذ عن هذه القاعدة الاجتماعية الأصيلة من بعض المنتهكين عبيد شهواتهم، أما الوسائل الرّادعة في محاربة هذه الفاحشة وتقييم جرمها لتحديد العقوبة فهو يختلف من دين إلى دين ومن حضارة لأخرى في الأخذ بالقساوة أو اللين، وفي مواجهتها بالتساهل أو التشديد.

أشرق نور الإسلام والعالم في جاهلية عمياء، فأهل الكتاب يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض، وهم بين إفراط وتفريط بين الرّوحية والمادية يختلفون ويتصارعون، ولا تكاد الشرائع الوضعية في الحضارات الأخرى تسدّ الفراغ القانوني أزاء هذه الفاحشة التي تحلّ بالحقوق الاجتماعية وتعرّض الأجيال للضياع، وجاهلية العرب على ما فيها من إباء وشمم، لم تسلم هي الأخرى من بعض التناقضات المخلة بالشرف، فهم وإن كانوا يعتبرون الزنى عارا بالنسبة للحرّة فقد جهروا به في البغايا من إمائهم ورفعوا على بيوتهم الرايات الحمراء للدعاية والإشهار، وهم لا يرون بأسا في زنى الرّجل بامرأة غير ذات زوج أو وليّ يغار عليها، سيما إذا

تمت علاقتهما بداعي المحبة والرّضى، كما تزوّجوا ببعض المحارم وقهروا النساء اليتامى في الزّواج بمن بدون مهر إلى غير ذلك من الظواهر السيئة التي تتطلّب إجراءات حكيمة للقضاء عليها، وهنا تظهر حكمة التشريع الإسلامي في حسن التدرّج والأخذ بأسباب الوقاية قبل العلاج، فهو إذ يقرر أن الزّنا جريمة في حدّ ذاتها تستلزم العقوبة، فإنه يفرّق بين الحالات المختلفة لمرتكبيها بين أن يكون أحدهم محصناً أو غير محصن، حرّاً أو عبداً، مكرهاً أو مختاراً... إلخ. وتبعا لذلك يحدّد حجم المؤاخذه والعقوبة.

ولتطويق الفاحشة وأخذاً بقاعدة "الوقاية خير من العلاج" نجد أحكام التشريع الإسلامي تتخذ التدابير الوقائية، فيحرّض المؤمنين على تحمّل مسؤولياتهم في رعاية أنفسهم وأهلهم وصونها من الرذائل والخبائث، ويملأ قلوبهم خشية لله وخوفاً من عذاب يوم القيامة فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦).

ثم يسدّ الدّرائع على مقدمات الزّنا بغضّ البصر عن النظر الحرام، ومنع الاختلاط والاختلاء بالأجنبيات، وينهى المرأة عن التبرّج والإغراء بزيّتها، ثم يحفظ الفروج بالزّواج الشرعي ويوفّر إمكانياته لطالبه رجلاً كان أو امرأة ويعالج المشكلات الزوجية

بالحكمة والأناة في كنف الحوار الهادئ والصّالح الخير، ويحافظ على تماسك الأسرة وسلامتها حين اعتبر الطلاق هو آخر الحلّ عندما تدلّ التجربة أن لا مناص منه، وإن كان يعتبره أبغض الحلال إلى الله، وحتى في هذه الوضعية المتردية للأسرة يفسح المجال للزوجين في العودة إلى التصالح والتراجع في تجربة ثانية وثالثة.

وفي ظل هذه الأحكام العادلة، لا يمكن للفاحشة أن تعيش لفراخها، ولا للغاوين أن يرتعوا متهتكين يجوسون خلال الدّيار، ولكن آتّى للنفوس المريضة أن تستمرّ العلاج والدّواء ولسان حالها يقول مع القائل:

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الدّاء

فلا غرابة أن تعيش وتوجد بعض تلك النفوس المريضة حتى في المجتمعات الفاضلة كمجتمع الرّسول وصحابته، فلا يروقها التّطهّر الاجتماعي، ولا يرضيها إلا أن تلغ في الحرام وتستقنع في الرّذيلة، لأنّ طبعها المنحرف قد استعصى عن كلّ علاج، وحاد عن الفطرة السّليمة، حتى انقلبت عندها المفاهيم إلى أضدادها، فهؤلاء قوم لوط قد اعتبروا دعوة رسولهم إلى التّطهّر جريمة يستحقّ عليها

التَّفِي عَنْ قَرِيَّتِهِمْ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿أَخْرِجُوا عَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ
إِنَّهُمْ أَُنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦). فهل يعاب على الإسلام أن
يضرَب بقوة ويعتبر فاحشة الزنا بعد القضاء على دوافعها في
المجتمع المعافى بمثابة مرض السرطان الذي لا يؤمن خطره إلا
بمبضع الجراح يستأصل شفته ما وجد لذلك سيلاً؟.

لقد حاول الخراصون أن يستفظعوا الحدود الصَّارمة في مثل
هذه الجرائم التي تقوِّض أركان المجتمع، بدعاوى من التَّقدم
والوعي الحضاري الذي تتمتع به اليوم المجتمعات البشرية، وهل
يعدُّ الطَّبيب الجراح قاسياً وهل يعتبر مجرماً في نظر القانون إذ
يشرِّح لحم المريض ويقطع أوصاله ليضمن العافية لباقي أعضاء
جسمه؟.

ودفعاً لهذا الوهم الخاطي لعاطفة الرَّحمة في مثل هذه المقامات،
جاء النَّهي عنها عن التَّرفق أو الرَّأفة في إقامة الحدِّ، واعتبار ذلك
من مقتضيات دين الله في مراعاة تلك الأحكام الصَّارمة، ومن
مستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ
فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ
عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

حدّ الزّنى نوعان: حدّ البكر وحدّ الثّيب. بعد تلك المقدّمة العامّة في ذكر الأحكام التي تنزلت السّورة لبيانها وفرضيتها، بدأ الله تعالى ببيان حكم الزّناة فقدم المرأة على الرّجل لأنّ داعية الزّنى في الغالب تكون بتعرّض المرأة للرّجل وإغرائه بزینتها. يقول الرّسول: «ما تركت بعدي فتنة أضّرّ على الرّجال من النّساء»^(١).

وظاهر النّص أنّ عقوبة الزّناة هو الجلد مطلقاً، وقد أشرنا إلى التّدريج في محاربة هذه الآفة وقطع دابرها، إذ يرى جمهور المفسّرين أنّ عقوبة الزّنا في أول الإسلام هي ما ورد في سورة النّساء من الحبس في البيت والإذابة بالتّعير في قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهِي يٰٓأَيُّهَا الْفٰحِشَةُ مِنْ نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَاذُوهُمَا﴾ (١٥-١٦).

وتأتي سورة النّور لتحدد الإذابة بالجلد مئة جلدة لكل من

١- رواه البخاري من حديث أسامة بن زيد، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٦.

الزَّانِينَ، ولكنها أطلقت الحكم دون اعتبار لاختلاف أحوالهما، غير أن السُّنة القولية والفعلية لرسول الله فرقت بين حالة الإحصان وعدمه في الرَّجُل والمرأة فقال: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم».^(١)

يعلق سيد قطب - رحمه الله - في الظلال بعد رواية الحديث فيقول: "وهناك خلاف فقهي حول الجمع بين الجلد والرجم للمحصن، والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم، كما أن هناك خلافاً فقهيًا حول تغريب الزَّاني غير المحصن مع جلده، وحول حدِّ الزَّاني غير الحرِّ، وهو خلاف طويل لا ندخل في تفصيله هنا، يطلب في موضعه من كتب الفقه".^(٢)

قلت: إن الذي تثبته النصوص قرآنا وسنة في هذه العقوبة الصَّارمة إنما هو الجلد لغير المحصن، والرجم للمحصن، والتفريق بين الحالتين هو محض العدل والإنصاف يقتضيه تقييس حجم

١- رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت، كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٥٨/١٨.

الجريمة ودوافعها، وليس المجرب الخبير في أمور الجنس كالمبتدئ الغرّ الهيوب، والله الحكمة البالغة في تشريع ما يناسب لطبائع خلقه، ولعلّ هذا العقاب الماديّ -على ما فيه من غلظة وصرامة- ليس بأشدّ إيلاما من ذلك العقاب المعنويّ بمشاهدة طائفة من المؤمنين له وتجردهم عن كل عاطفة قهوّ من شأن تلك الجريمة الشنعاء.

قد يقول قائل: إن الرّجر بهذا الإيلام الماديّ والمعنويّ، قد يفيد غير المحصن إذا قدر له أن يتحمل الجلد دون أن يتعرض إلى الموت، فما بال المحصن الذي يرحم إلى حدّ الموت، والحكمة تقول: ما لجرح بميت إيلام؟ وللإجابة على هذا السؤال، نعرض قصة ماعز والمرأة الغامدية كما روتها كتب السنّة.

قصة ماعز وما فيها من عبر

إن ماعزا الأسلميّ كان غلاما يتيما في حجر هزال بن نعيم فزنى بجارية من الحيّ فأمره هزال أن يأتي النبي ﷺ ويخبره بما صنع لعلّه يستغفر له، فجاء النبي ﷺ وهو في المسجد فناده: يا رسول الله إني زنيت، فأعرض عنه النبي وقال له: «ارجع فاستغفر الله وتب إليه». فتحنّى لشق وجهه الذي أعرض قبله، فقال: إني

زينت، فأعرض عنه النبي فتحمى لشق وجهه الذي أعرض قبله فقال: طهرني يا رسول الله فقد زينت. فقال له أبو بكر الصديق: لو أقررت الرابعة لرجمك رسول الله. ولكنه أبي فقال: يا رسول الله إني زينت فطهرني،... إلخ.

وتذكر الرواية أن الرسول ﷺ عدّد عليه الأسئلة بمختلف الأساليب التي تدلّ على العملية الجنسية فكان يجب بكل تأكيد لما فعل، ويثبت الرسول مع أصحابه لعلّ به مسّ من الجنون أو لعله سكران؟. فلما استوفى الثبوت والتحقيق أمر برجمه.^(١)

قلت:

أ- نستنتج من النصّ ما يجب أن يقوم به المحقق الشرعي لتقرير الإقرار بالجريمة مما يترتب عليه الحدّ، كما جاء في الأثر: «ادّأوا الحدود بالشبهات». وذلك بأن لا تتخالف في المرات الأربع، كما يراعى ذلك في شهادة الشهود الأربعة.

ب- كان التطهر من الذنب هو الدافع لما عثر في الإقرار بجريمته لرسول الله وكما ثبت ذلك في قصة المرأة الغامدية، ولم يرهبهما

١- رواه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه وغيره، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، رقم ١٦٩٥.

الموت وهما يجزمان أنه مصيرهما في حكم الله رجاء توبتهما والمغفرة لهما من الله، وهما يتجلى لنا وخز الضمير والعذاب النفسي الذي أحسّا به بعد وقوع الجريمة، وكيف آثرا عذاب الموت على ذلك، وليس ذلك غريبا في أثر الإيمان وفاعليته بعد عودة الوعي ويقظة الضمير، وإذا علمنا أن رسول الله قال في ماعز خيرا وصلى عليه ومنع صحابته أن يذكره أحدهم بسوء وقال: «استغفروا لما عزر بن مالك، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم».

إذا علمنا ذلك تبين لنا كيف أن الإسلام لا يقتصر على مراعاة الجانب الزجري في الحدود، بل يعطي للجانب الجبري قيمته عندما ينكسر جبل الإيمان، فهو لا يسلم العاصي للقنوط واليأس أو يتركه فريسة للعقد النفسية تحت تأثير الندم والقلق إذ يترفع بالجاني ويحيي الأمل في نفسه قائلا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). وللفقهاء تفاصيل تطلب من مظانها تتعلق بصاحب الحق في إقامة الحد، وبصفته ومكانه وأداته... إلخ، والله أعلم.

حكم الزنا

(أ) - النص:

الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ
وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾

(ب) - البيان والتفسير:

لا يمكن أن يعتبر الزَّانِي في معيار الإيمان كالوفاي العفيف، ذلك لأن الزَّانِي لا يرتكب جريرته وهو على أتم الوعي في حسه الإيمان، يقول الرسول ﷺ: «لا يزني الزَّانِي حين يزني وهو مؤمن»^(١) ويزداد بعدا عن حظيرة الإيمان كلما لجَّ في نزوته وسدر في غفلته، فلا يتوب إلى الله ولا يكفر عن خطيئته، وإذا قدر لمثل هذا الصَّنَف من الناس أن يرتبطوا برباط شرعي فهم لا يختارون إلا من يناسبهم من المنحرفين أمثالهم، والمثل يقول: "إن الطَّيَّور على أمثالها تقع". لأن النفس المؤمنة حق الإيمان تنفر أن

١ - رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم ٥٧.

ترتبط بمن لا يوائمها في الطهر والعفاف.

وإمعانا في تفضيع هذه الفاحشة حكم الله على الزناة بهذه البراءة الاجتماعية، وضرب عليهم ذلك الحجر بحيث لا ينجذب أحدهم إلا لصنفه من الخبيثين والخبيثات، وبذلك يحصن المجتمع المسلم بأسباب الوقاية تترها وترفعها وصيانة للأعراض.

يذكر الرواة في سبب النزول: أن امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله أن يتزوجها، واشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية.^(١)

وأما قصة مرثد بن أبي مرثد الغنوي مع عناق فقد بسطتها كتب السنة، وفيها أنه كان يحمل الأسارى من مكة إلى المدينة. وفي إحدى رحلاته أتى رسول الله وقال له: يا رسول الله: أنكح عناقا؟ أنكح عناقا؟ (مرتين)، فأمسك رسول الله فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت الآية: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، فقال

١- رواه أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو، رقم ٦٤٨٠،

الرَّسُولُ: يَا مَرْثَدُ: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً فَلَا تَنْكِحُهَا».^(١)

وقد اختلف علماء الصَّحابة والأئمة في المقصود بهذا الخبر، أَمُّهُ لِلتَّحْرِيمِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ؟، أَمْ هُوَ لِلتَّرْيِيبِ وَالِابْتِعَادِ وَالْحَيْطَةِ؟، وَبِالتَّالِي: هَلْ يَجُوزُ التَّزْوُجُ بِالْبَغَايَا أَوْ تَزْوِيجُ الْفَجَّارِ وَالْفَسَاقِ بِالنِّسَاءِ الصَّالِحَاتِ الْعَفِيفَاتِ؟، وَيَتَفَرَّعُ عَنْ ذَلِكَ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ بِمَرْثَدَتِهِ؟، وَهَلْ يَفْرَقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ إِذَا زَنِى أَحَدُهُمَا؟.

وَدُونَ أَنْ نَدْخُلَ فِي تَفَاصِيلِ تِلْكَ الْأَحْكَامِ وَمَا رُوِيَ فِيهَا مِنْ خِلَافٍ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا نُرِيدُ أَنْ نُنَبِّهَ إِلَى بَعْضِ الْأُمُورِ:
(أ) - أَنْ مَرَاعَاةَ الْكِفَاةِ وَالْمُلَاعَمَةِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ فِي الْإِسْتِقْرَارِ الْعَائِلِيِّ، سِيَمَا مَا يَتَعَلَّقُ بِجَانِبِ الْعَقِيدَةِ وَالسَّلُوكِ.

١- رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ سُورَةِ النُّورِ، رَقْمُ ٣١٧٧، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِهِ أَيْضًا، رَقْمُ ٢٧٠١، وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ (١٨٠/٢).

(ب) - إن التحرّي في الأنساب وصيانتها من لوثة العار يقتضي الابتعاد عن مواطن الشبه، والصرامة في التطهّر والتصوّن.

(ج) - لكل مجتمع ظروفه وتقاليده التابعة من ماضيه التاريخي والمنبثقة عن رصيده الحضاري، وقد تتباه بعض الظروف القاسية فيضطرّ إلى تغيير بعض أنماط سلوكه ارتكاباً لأخف الضررين، ومن رحمته تعالى أن يوسّع على خلقه في مثل هذه الأحكام، ما بين التشديد والتخفيف، والأخذ بالعزيمة أو الرخصة، ولا غضاضة في ذلك ما دام الحكم في إطاره الشرعي المعمول به عند هذا المذهب أو ذاك.

(د) - العقوبة الاجتماعية لا تقلّ زجراً وردعاً عن العقوبات الأخرى في مجال التربية، وفيها يندرج حكم هذه الآية ولذلك قال رسول الله: «لا يدخل الجنة ديوث»^(١).

والديوث: هو الذي يعلم أن امرأته فاجرة ثم لا يتبرأ منها.

١ - رواه الطيالسي في مسنده رقم ٦٤٢، قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا شعبة قال: حدثني رجل من آل سهل بن حنيف عن محمد بن عمار عن عمار قال: قال عليه السلام: «لا يدخل الجنة ديوث».

قلت: ومن هذا نعلم ما للبراءة الشخصية من فعالية في تقويم المعوج وردع المنحرف، لأنه يصبح بذلك في عزلة اجتماعية لا يقوى على تحملها فينقلع ويزدجر، والله أعلم.

حدّ القذف

(أ) - النص:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
مَنْعَيْنِ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ①
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ②

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿يَرْمُونَ﴾: الرمي في حقيقته هو قذف الشيء من اليد لإصابة هدف، أو لنبذه في التراب، استعمل في نسبة فعل أو وصف إلى شخص. ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: ورد الوصف في القرآن لمعنيين: الإحصان بالزواج الشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٢٤). أي الحرائر المتزوجات تحرم خطبتهن ونكاحهن، ويأتي الوصف بمعنى العفة والطهارة

وهو المراد في هذه الآية، ومنه قوله تعالى في مريم **الضَّلِيلَةَ**: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا﴾ (الأنبياء: ٩١). ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: الفاسق الخارج أو المنحرف عن طريق الإسلام.

ج- البيان والتفسير:

هذا حكم آخر معطوف على حكم مقترف جريمة الزنا، لأنه جرم لا يقل خطراً عنه في إفساد المجتمع بشيوع الفاحشة، وهو ما يسمى في المصطلح الفقهي جريمة القذف، وذلك بأن تتهم شخصاً بجريمة الزنا بدون ثبوت ولا بيان قَصْدٌ إذايته أو الخطأ من شرفه، وقد كان أجاهليون شديدي الحساسية في نظرهم إلى علاقة المرأة بالرجل فيأخذونهما بالظنة لمجرد أدنى اتصال بحديث أو مصاحبة في العلاقات الاجتماعية العامة، وفي العلاقات الداخلية في الأسرة إذا رأوا قلة شبه بين الأب والابن، وقد شكى رجل إلى رسول الله ميل ولد فراشه إلى السواد خلافاً لبشرة أبيه فأجابه الرسول الحكيم بأن يكون الولد قد نازعه عرق، وأعطى له مثلاً مما يلاحظه في إبله من وقوع تلك الظاهرة أحياناً.

والقذف من أخطر آفات اللسان التي حاربها الإسلام بدون هوادة، وناهيك من قساوة العقوبة التي رتبها على ذلك وهي لا

تبعد عن عقوبة الزنا إلا بيسير، لما ينجر عنها من هتك للأعراض ونشر للرديلة وإشاعة البلبه والشكوك والأوهام بين الأسر، مما يعرضها لتحطيم سمعتها وتفكك وحدتها، فلا عجب أن يقف الإسلام هذا الموقف الحازم في محاربة هذه الآفة بالضرَب على أيدي مرتكبيها متى ثبتت إدانتهم بالإجراءات الشرعية حسبما بيّنتها الآية الكريمة، قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، لم يذكر فيها مفعول الرمي اكتفاء بدلالة السياق ولكون المحصنة عفيفة طاهرة، فرميهن بجرمة الزنا هو الذي يسلب عنهن تلك الصفة، وقد أجمع العلماء على اعتبار القذف للمحصنات من النساء والمحصنين من الرجال جريمة حفاظا على عرض المسلم أيا يكون القاذف ذكرا أو أنثى، والآية نصّت على النساء بالخصوص لأن ضررها بالقذف أبلغ لما يمكن أن ينجر عنه من الضرر ولوثة العار لأسرتها وذويها، وكثيرا ما ترد الأوامر الإلهية بصيغة المذكر فتدخل النساء في الخطاب على وجه التغليب.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، التعبير بالإتيان بأربعة

شهداء من الذين يرمون يدل على أن القاذف لا يكون من جملة الشهداء وذلك هو الأرجح، ويذهب بعض العلماء إلى أن القاذف منهم يكتمل النصاب المشترط في الآية به، يدلون بشهادتهم مجتمعين أو متفرقين أمام الإمام أو القاضي شريطة أن يكونوا عدولا. ولا يعتبر قذفا إلا ما يكون تصرّحا بوقوع الزنا ولا عبرة بالكناية أو التلميح، ولا عبرة بما يستعمل عادة عند الملاحاة والخصام من قيل "يا بن الحرام" أما تحديد حجم التعريض واعتبار نية القاذف في ذلك ففيه خلاف بين العلماء، سيما إذا اختلفت أحوال القاذف بين الرضى والغضب، أو بين الصّحو والسكر، أو كان في العبارة احتمالات كثيرة كما اشتبه على سيدنا عمر رضي الله عنه قوله أحد رجلين لآخر: ما أنا بزان ولا أمني بزانية، أهو مدح لنفسه وأمه أم هو قذف لصاحبه؟ مما اضطرّه إلى استشارة بعض الصّحابة فرجحوا أنه قذف فجلده ثمانين جلدة، وأما الرمي ببلوثات جنسية أخرى كاللواط والسحاق مثلا فليس بقذف عند بعض العلماء ولكن يجب فيه التعزيز، وهو قذف عند آخرين يجب عليه الحد.

قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، إنه الحكم الإلهي العادل في عقوبة

القاذف، ولا عجب في كونه قاسيا لا يختلف كثيرا عن عقوبة الزنا، قطعاً لدابر إشاعة الفاحشة والولوج في أعراض الناس فقد حكم الله عليه بأحكام ثلاثة:

(أ) - أن يجلد ثمانين جلدة بدون زيادة ولا نقصان.

(ب) - أن لا تقبل شهادته أبداً.

(ج) - يدرج في صنف الفاسقين عن شرع الله.

وفي كل من الأحكام الثلاثة تفصيل وبيان في كتب الفقه. وهل تسقط عقوبة الحدّ عن القاذف إذا عفا عنه المتهم ولم يرفع أمره إلى الحاكم؟ خلاف بين العلماء، والأرجح أنه يسقط بذلك لأن الرسول ﷺ قال: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستّر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله». ^(١)

يلاحظ أن حدّ القاذف لا يبعد كثيراً عن حدّ الزاني غير المحصن، ذلك لأن مشيئة الفاحشة بالقذف يغيظهم التطهّر

١- رواه مالك في الموطأ من حديث زيد بن أسلم مرسلًا، كتاب الحدود، باب ما جاد فيمن اعترف على نفسه بالزنا، رقم ١٥٠٨.

والعفاف حيث لا يجدون مرتعا لثرواتهم، فلا أقل من ترويح الإشاعات واتهام المحصنات يتسلون بما في أحاديثهم ويروجون على نفوسهم الخبيثة علها تصادف جيفة من الجيف فينقضون عليها كالكلاب المسعورة، وشرط أربعة شهود لإثبات التهمة يتعذر توفره إلا في المجتمعات المتهتكة، ولذا حكم الله بالفسق لأولئك المستهترين الذين قد يتظاهرون بالغيرة وهم كاذبون، والتعبير بالرّمي فيه معنى القصد والتسديد لحذف معين، فليس هو مجرد كلام عفوي يذهب مع الريح لا نلقي إليه بالا، ويجب أن لا يتناقض الشّهداء في شهادتهم وإلا عدّ كل واحد منهم قاذفا كما فعل عمر رضي الله عنه بالذين وجهوا قملة الزّنى إلى المغيرة بن شعبة.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

يأتي هذا الاستثناء بعد الأحكام الثلاثة المنصبة على القاذف، واختلف العلماء هل يرجع الاستثناء إلى الأحكام الثلاثة كلها أو إلى بعضها؟، أو هو متعلق بالحكم الأخير، أي رفع حكم الفسق عنهم بعد التوبة والإصلاح؟ وننقل هنا ما رجّحه الشيخ الإمام إبراهيم بيوض في تفسيره للآية يقول: "وأجمع العلماء أن الاستثناء يتناول الجملة الأخيرة، وإلا فلا يكون لوروده معنى، فهو يرفع

وصف الفسق وآثاره عن الحدود، فيبقى الخلاف محصوراً في قبول شهادته بعد صدق توبته، فقال بعض الفقهاء: تقبل إذا تاب واستقام على توبته وظهر صدقه وصلاحه، ولكن الجمهور على أن شهادته لا تقبل أبداً، وهو القول الذي نميل إليه ونرجحه لوجوده:

أولاً: لذكر التأييد في المسألة، فهو يقتضي مدة أطول من المدة التي بين القذف والتوبة وقد تكون قصيرة.

ثانياً: إذا كان الاستثناء يتعدى الحكم الأخير فما الذي يقصره على الحكم الأوسط دون الأول؟، وهو قطعاً غير داخل كما بينا -أي أن التوبة لا تسقط الحد- وذكرنا أن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين جلدوا ورجعوا ولم يعطلوا الحدود بعد التوبة.

ثالثاً: والنظر الأخير الذي يرجح ما ذهبنا إليه كما أشار إليه بعض المحققين هو أن الأحكام الثلاثة جاءت على ثلاث صيغ: الأولى أمر: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾. الثانية نهي: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾. الثالثة إخبار: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

فجاء حكم الأخير مخالفاً في أسلوبه للحكمين السابقين، فلم يقل: أحكموا عليهم بالفسق، وإنما حكم عليهم بأنهم فساق وقال

بعد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ولم يقل: فاعفوا عنهم.

فلما كان هذا الحكم الأخير من خصوصيات الله، وهو تعالى وحده يعلم حقيقة توبتهم وإصلاحهم، فيدلّ هذا أن مرد الاستثناء إلى الحكم الأخير وحده، وهو يعلم التائبين من الفاسقين، وتذيله بأن الله غفور رحيم يزيد الأمر ترجيحاً أن المراد مغفرة ذنبهم ورفع الفسق عنهم^(١).

اللعان: قذف الرجل وزوجه

أ- النص:

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⑥ وَالْخُمُسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑦ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑧ وَالْخُمُسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑨ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑩

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾: قراءة نافع والجمهور بالتصبي على المفعول المطلق، وخبر: ﴿شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾: محذوف مقدر هكذا: فشهادة أحدهم واجبة أو لازمة. ﴿لَعْنَتْ﴾: اللعن: الإبعاد من رحمة الله على وجه التحقير. ﴿وَيَذَرُونَا﴾: يدرأ درعا: دفع بقوة، واستعمل هنا للإبطال. ﴿وَكُلُّوْا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾: جواب الشرط مقدر هكذا: لأصبحتم في عنت وحرَج، ولا تنقم بعضكم من بعض، وحذفه لقصد تمويل مضمونه.

(ج) - البيان والتفسير:

هذا حكم آخر معطوف على حكم القذف الذي كان عاماً على كل قاذف يصيب الشخصات عموماً سواء كن أزواجا للقاذف أو أجنبيات، فإذا أمكن للقاذف إحضار أربعة شهود يعاينون معه جريمة الزنا وهي تقع خارج بيته، فما حيلته إذا أصيب في فراشه بخيانة زوجته وقد وجدها تضاجع رجلاً غيره في فراشه؟ أو وجدها حاملاً بعد أن تحقق من براءة رحم زوجها في غيابه عنها؟ أو أنكر الولد لشبهه في لونه أو خلقته؟ أيبحث عن الشهود فينفلت الجاني من قبضته؟ أم يرمي زوجته بالزنا دونما بينة

فيصبح قاذفاً؟، أم ينطوي على غيظ ويغضي على القذى فيعيش معذب الضمير راضياً بالفاحشة في أهله؟، وقد تدفعه غيرته فيقضي على امرأته وعلى الجاني بنفسه غير منتظر حكم العدالة فيكون في حكم القاتل؟.

إنها أسئلة عميقة ومواقف حساسة لا يمكن حسمها إلا بقانون الله العادل الذي يحافظ على كرامة الزوج وشرفه ونسبه من جهة ويقتصر من الجاني بما يتلاءم مع حساسية الموقف.

وشاءت حكمة الله أن تحدث قضايا من هذا القبيل في مجتمع الصحابة بالمدينة المنورة فيقعون في تلك الحيرة ويرفعون أمرهم إلى رسول الله، وفيهم المنطرب في غيرته مثل زعيم الأنصار سعد بن عبادة، الذي قال: لو وجدت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، وفيهم المترث الملهوف الذي يطلب من رسول الله جواباً حاسماً في قضيته مع امرأته كقصة عويمر العجلاني مع زوجته خولة بنت عاصم، وغيرها من القضايا التي ذكرها الرواة لأزواج أصابتهم الرية في أزواجهم، كل ذلك ورسول الله لا يملك جواباً إلا من حكم القذف في الإتيان بأربعة شهود وإلا إقامة الحد، وهكذا اشتد الأمر على الناس والرسول يطلب مولاه بقوله: «اللهم احكم».

وعندما تَمَيَّاتِ النَّفُوسَ واشترأيت الأعناق إلى حكم الله نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾.

وذكر الرواة أنها نزلت في شعبان سنة تسع بعد الرجوع من غزوة تبوك، فكانت منة من الله تعالى على هؤلاء الأزواج الذين أصيبوا في أعز ما يملكون وسميت هذه العملية بـ"اللعان" في المصطلح الفقهي وخلاصته: أن يشهد الرجل الزوج أمام الحاكم أربع شهادات مضمنة بالآيمان أنه صادق في اتهام زوجته بالزنا صراحة بناء على ما عاينه بنفسه، بحيث لا يكفي بمجرد الشبهة أو الكناية، أو ينكر أن يكون ولدها منه بصريح العبارة كذلك، ثم يزيد شهادة خامسة بأن تكون لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ينادي بالمرأة لتشهد أربع شهادات بأن زوجها كاذب فيما رماها به وتزيد شهادة خامسة بأن تشهد بغضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً.

وفي ما حكاه الرواة في إنفاذ رسول الله للملاعنة بين هلال بن أمية وزوجه أن الرسول كان يعظ الملاعن الرجل والمرأة قبل أن يدلي أحدهما بالشهادة الخامسة بقوله: «أتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وأن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب». وأيضاً قال لهما: «إن الله يعلم أن أحكما كاذب،

فهل منكما تائب؟». فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها فشهد الخامسة. ثم تقول الرواية إن الرسول فرّق بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى بولد الزنا كما لا ترمى هي، ومن رماهما فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت.^(١)

وقد اختلفت العبارة في الشهادة الخامسة لكل من الرجل والمرأة بأن يحكم الأول على نفسه بلعنة الله وتحكم الثانية على نفسها بغضب الله، لأن الرجل في دعائه على نفسه باللّعنة في حالة كذبه قد عرّض زوجته بذلك للعنة الناس وبذهم إياها في إمكانية تزوجها بآخر وأما المرأة فتدعو لنفسها بغضب الله في حالة صدق زوجها لأنها تكون قد أغضبت زوجها بذلك وخاتته في نفسها فهي تستحق بذلك غضب الله والجزاء من جنس العمل.

والتهمة بالخيانة الزوجية أمر فظيع يهزّ أركان الأسرة بفقدان الثقة بين الزوجين، وإلحاق الضرر بالأولاد، والفصل في ذلك بالملاعنة هو ارتكاب أخفّ الأضرار من الناحية الاجتماعية، غير

١- رواد أحمد في المسند من حديث ابن عباس، رقم ٢١٣١، ٢٣٨/١.

أن الحقيقة لا يعلمها إلا الله، ولذا شدد الرسول المسؤولية على الزوجين المتلاعنين فقال: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأشهاد من الأولين والآخرين»^(١).

وللعان شروط مبسطة في كتب الفقه وهي تختلف بين الإطلاق والتقييد، وكذا ما يترتب عليه من نتائج، ويعتبر حكم اللعان هذا مخرجاً حكيماً ومتنفساً واسعاً أمام قوم اعتادوا في جاهليتهم الغيرة المفرطة منساقين مع العواطف الجموحة حين يجدون على فراشهم شخصاً غريباً، أو حين يأتي الولد غير مشابه لأبيه، فاقتضت حكمة الله تعالى أن تقع أحداث من هذا القبيل في ذلك المجتمع الفاضل فيتلهف الناس إلى حكم الله وهو بين الإغضاء عن الفاحشة وبين حد القذف، حتى إذا نزل حكم الله انشرفت له النفوس واعترفت بفضل الله.

١- رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب النكاح، باب في التغليظ في الانتفاء، رقم ٢٢٦٣؛ ورواه الحاكم من حديثه أيضاً، رقم ٢٨١٤، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. (٢/٢٢٠).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾:

فهو فضل الله يغمركم ورحمته تظللکم في مواقف الضعف الإنساني حيث يؤتى الإنسان من مأمنه وتصفعه يدا، ولو شاء الله لقضى بحكم آخر ولأعنتكم به ولكن الله تَوَّابٌ حَكِيمٌ، تَوَّابٌ لما بدر منكم من القلق والخيرة قبل نزول الحكم، حَكِيمٌ في تشريع ما يصلح بكم دنيا وأخرى، والله أعلم.

قصة الإفك

أ- النص:

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شَهَادَةٍ فَإِذْ يَآئُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَتَقُولُونَ بَافُوا هَكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ

أَنْ تَعُوذُوا بِالْمِثْلِ ۚ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكَ الْأَيِّتَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿بِالْأَفْكَ﴾: من أفك يأفك فهو آفك وأفك: الكذب الصراح. ﴿عَصْبَةً﴾: العُصْبَةُ والعَصَابَةُ: الجماعة تكون من العشرة إلى الأربعين. ﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾: أي تحمل أكبر جزء من إشاعة الإفك، والمقصود حسب الروايات هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ إذا انطلقت منه الإشاعة عندما قال: "والله ما نجت منه ولا نجا منها". ويقصد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفوان بن المعطل رضي الله عنه وسانده من المنافقين اليهود زيد بن رفاعه ومن المؤمنين الضعاف: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش. ﴿أَفْضَيْتُمْ﴾: أفاض في الحديث، أي خاض فيه بتوسعة. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾: تلقى القول: تلقّاه دوغما ثبت. ﴿بِهَتَانٍ﴾: الكذب الذي يهت سامعه ويخيره لفظاعته. ﴿تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾: تنشر جريمة الزنا وما إليه من الخصال الخبيثة الأخرى كاللواط والسحاق.

ج- البيان والتفسير:

هذه هي قصة الإفك التي تمحورت حولها الأحكام التي نزلت في السورة الكريمة، وقد تناقلت الروايات المختلفة في كتب الصحاح أحداثها بتفصيل كما روتها أمنا عائشة رضي الله عنها نجلها في ما يلي، وقد روى القصة أئمة الحديث مفصلة بأحداثها: "تجهز النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه بغزوة بني المصطلق وكان يقرع بين نسائه عند كل سفر فخرجت القرعة لعائشة رضي الله عنها فخرجت على هودج لجمال خاص بها، وعند رجوعهم من بني المصطلق ظافرين، نزلوا في بعض الطريق، فذهبت عائشة لقضاء حاجتها، وبعد رجوعها أحست بضياغ عقدها، فذهبت تبحث عنه ولم تجده إلا بعد بحث طويل، وقد ارتحل العسكر عن مكان النزول فلم تجد بدا من لزوم مكانها، حتى إذا رجعوا إليها وجدوها، وبينما هي متلحفة بخمارها في مكانها إذا بأحد الصحابة المتخلفين عن الركب -وهو صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه- يلحق بذلك المكان، ويعرف المتلحفة أنها عائشة، فحوقل وأناخ جملة ولم يكلمها، فركبت وقاد الجمال حتى لحق بالعسكر، وكان فيهم منافقون، فلما مرّ على عبد الله بن أبي قال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، امرأة نبيكم

باتت مع رجل حتى الصّباح فجاء يقودها، ثم شاعت الكلمة بين المنافقين ولم يسلم منها ضعفاء المؤمنين. قالت عائشة: ولم أنبه لشيء مما وقع فيه الناس إلا أنني رأيت ازورارا في معاملة النبي إياي، وقد مرضت بالحمى، وقد كان يهتمّ لمرضي ويسليني ويجلس طويلا، غير أن هذه المرة فقدت عطفه القديم وكان لا يزيد إذا دخل أن يقول: كيف تيكم؟ قالت: فتعجبت من ذلك فاستأذنته أن أقضي أيام المرض عند والدي فأذن لي، ومضت عليّ بضع وعشرون ليلة وما شعرت بشيء من حديث الإفك.

خرجت لقضاء حاجتها في بعض الليالي معتمدة على ممرضتها أمّ مسطح، فعثرت أمّ مسطح على لحافها فقالت: تعس مسطح، فقالت عائشة: بيسما قلت على أحد شهد بدرا من المسلمين؟ حينئذ قصت عليها الخبر كما هو واقع، فاشتد الأمر على عائشة ولادّت بالبكاء، وحاولت أمّها أن تهوّن عليها ما وقع، لأنه قلما تكون امرأة حسناء عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها، فسيجعل الله لها مخرجا، قالت: ظللت أبكي حتى ظننت أن البكاء فائق كبدي، ولم أذق طعم المنام لليلتين فأصبح أبوأي عندي، واستأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينما نحن كذلك دخل علينا رسول الله ﷺ وهو في

قلق شديد، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء، وكان قبل ذلك سأل أهل البيت ومولاه أسامة وجارته فلم يقولوا إلا خيرا، ثم إنه تشهد وخاطبني قائلا: إن كنت بريئة فسيرك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله، قالت عائشة: فجف دمعي فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله لا أدري ما أقول فالتفت إلى أمي فقالت مثل ذلك، فالتفت إلى النبي ﷺ وقلت: والله إنني أعلم أني إذا قلت: فعلت والله يعلم أني بريئة تصدقوني، وإذا صدقت تكذبوني ولكنني أقول كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

قالت: فتلفحت في لحافي ونمت وتركهم حيارى، قالت: فوالله لم يتحرك أحد من مكانه حتى نزل الوحي على رسول الله، فلما سري عنه تملل وجهه وهو يتسم فأول كلمة قالها: أبشري يا عائشة فقد برأك الله، فقالت لها أمها: قومي إلى الرسول فقبلي رأسه، فقالت: والله لا أحمد إلا الله فهو الذي برأني ثم تلا عليهم

الرَّسُولَ الْآيَاتِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾^(١).

هكذا يبدأ السياق بهذا الاستئناف الابتدائي مؤكداً بـ "إن"، ولذيق القصة في الجماعة المسلمة صار الإفك علماً بالغلبة للكذب الفظيع، والتعبير بـ "جاءوا" يدل على غرابة هذا الخبر حتى وكأنه جيء به من بعيد، فهو دخيل على أخلاقيات المجتمع المسلم، الذين جاؤوا به هم عصبة قليلة يجمعهم هدف واحد هو التكاية بالمسلمين وإحداث البلبلة في صفوفهم، وفيهم منافقون وبعض السذج من المسلمين ممن يستمعون إلى كل ناعق وعلى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، ومن المسلمين السذج مسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمزة بنت جحش وهي مدفوعة بالحمية لأختها زينب بنت جحش، فإلى هؤلاء جميعاً يتعين كاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿مِّنْكُمْ﴾ أي من جماعتكم، إذ أن صفة التفاف في ابن أبي لم تجرده عن كونه مسلماً في ظاهره ينطوي على مكر وخبث؟ كيف وقد أبى رسول الله أن يقتله تأليفاً لقلبه وهو سيد قومه، ثم إنه كان في جيش المسلمين لغزوة

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٤١٤١؛ ورواه مسلم من حديثها، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم ٢٧٧٠.

بني المصطلق.

فالألفاظ الثلاثة المستعملة في هذا الخبر كلها تدلّ على التحقير والتشنيع، فالإفك ليس كذبة عادية، بل هو بكتان مبین ينجأ الناس لفظاعته، والذين صدر عنهم اختلقوه اختلاقاً وهم يرمون بذلك المكر والكيد للإسلام، فحقّ للمسلمين أن يفجعوا بهذا الخبر، وحقّ لرسول الإسلام ولصاحبه الصديق أن يعتصرهم الألم، ويتألمهم القلق وكلاهما ينجأ في أحبّ الناس إليه، وأعلاهم منزلة لديه، تلك الطاهرة البرينة والغافلة العزيزة، التي تنام عن عجبها فتأكلها الذواجن كما قالت عنها الجارية بريرة.

إنه لموقف عصيب ووضع كتيب ذلك الذي عاشه المسلمون عامّة، وعاشه أبطال هذه القصة الغريبة، وعلى رأسهم رسول الإسلام وزوجه عائشة أمّ المؤمنين، حتى ساورهم القلق واستبدّت بهم الحيرة في شهر كامل، وهم يلتمسون من الله التور الذي يهديهم ويبدّد عنهم ظلمات الحيرة والشكّ، فيا لحكمة الله البالغة في ما يدبره من الخير والصّلاح من وراء هذه الأحداث التي ظنها المسلمون أمّا شرّ ووبال عليهم، فإذا بقبس الوحي يتألّق، وإذا بكلام العزيز الحكيم يهدئ الأعصاب ويشرح الخواطر: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا

اَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

هكذا ينفي الله عن نفوس المسلمين ظنون الشر، وما أبلغ التعبير القرآني في استعمال فعل الرجحان، في ما تكون عليه انفعالات الإنسان، وحسب هذا النفي للشر تعبيراً كافياً في إثبات الخير، ولكن الله تعالى أكد كون ذلك خيراً بأداة الإضراب، لينزل بذلك كل وهم يمكن أن يلحق الضرر بالجماعة المسلمة الخريصة على تقواها وحملاتها، وقد خصص الإمام أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - أوجه ذلك الخير في ما يلي:

(أ) - أثبت هذا الحدث طهارة الجماعة من الدنس والسوء وما يحكمها من النظام والتماسك والعدالة الاجتماعية ورعاية القلوب وبراعة الصمود، كما أثبت دناءة المنافقين وخستهم في محاولتهم اليائسة للحق من شرف الرسالة وإضعاف القوة المعنوية لدى المسلمين.

(ب) - سبب الحدث زيادة عظيمة في قوانين الإسلام وأحكامه وقواعد للحياة الاجتماعية في محاربة المنكرات والفواحش.

(ج) - علم المسلمين بما جرى في شهر كامل أن النبي لا يعلم الغيب، وأنه لا يعلم إلا ما يخبر به تعالى عن طريق الوحي وأنه في

ما سوى أمر الرّسالة بشر مثلهم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا".^(١)
 غير أن المسلمين يتفاوتون في إدراك الجوانب الخيرية المقدّرة في علم الله وهم يعيشون ذلك الحادث، والإنسان عجول بطبعه، فهو لا يرضى إلا أن يعرف حكم الجاني وقد أدانته المحكمة الإلهية العادلة، ليطمئن إلى زوال مكن الخطر على شرفه وعرضه، فكان ذلك الوعيد الشّدِيد لرأس المنافقين بمثابة الفصل النهائي لقضية إجرامية خطيرة فقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولاشك أن يكون عظم العذاب في الدّرك الأسفل من النّار -والعياذ بالله- وفق وعيد الله للمنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥). مما يدلّ على أن رأس المنافقين قد ختم الله عليه بالكفر. وأما بقية العصبة فلكل منهم ما يستحقه من العقاب. وقد تابوا كلهم وأنابوا كما تذكره الروايات.

وأمام هذا الابتلاء، فما هو المنهج الرّبّاني في مواجهة المشاكل؟ وما هي التّربية الحكيمة التي يتلقاها المسلمون؟ فلنستمع لربّ العزّة يقول:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾: بهذا التوبيخ اللطيف المصدر بـ "لولا" التي بمعنى "هلا" يبدأ العلاج الذاتي بسلامة الصدر ونقاوة الضمير، والطيبة في المعاملة، والظن الحسن في الأخوة الإيمانية، والتعبير: ﴿بأنفسهم﴾ وذكر المؤمنين والمؤمنات بأسلوب الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغائب هو للتركيز على ظن الخير والاعتماد على الوازع الإيماني في ذلك لأنه هو الرصيد الباقي لحياة الأمة واستمرارها بعد انقطاع الوحي، ولأن الفضيلة تقتضي أن لا يسيء المسلم ظنا بنفسه ولا بأفراد مجتمعه، كيف وقد وضع رسول الله لأُمَّته مقياس التعامل التّظيف فقال **الطّيف**: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». ^(١) سيما إذا كانت تلك الأخوة الإيمانية التي يجب أن تراعى هي في أشخاص غير عاديين، بل في أشخاص هم في القمّة عند الله وعند أوليائه من المؤمنين والمؤمنات، وأضاف الله تعالى إلى ذلك أن يكون الإنكار باللسان إذ قال: ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، لأنّ تغيير المنكر بالقلب هو أضعف الإيمان.

١- رواد البخاري من حديث أنس، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.

وبعد التطهير الذاتي والمعالجة الإيمانية تأتي الخطوة الثانية في تشريع الإجراء القانوني للإدانة: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ودائما بأسلوب التوبيخ بـ "لولا" يذكر الله المؤمنين بما شرعه لهم في القذف كما ورد ذلك مفصلاً في الآية السابقة، في وجوب الاستناد إلى شاهدين أربعة مشاهدة ومعينة للجريمة ترتكب ظاهرياً لا لبس فيها، فهؤلاء الذين اختلقوا الإفك لم يستندوا إلى ذلك فهم أفاكون عند الله، أي في علم الله.

وجيء بتسعة الخصر: ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ للمبالغة في تصوير الشناعة، ولا يفيد أن الكذب لا يكون كذباً إلا عند انعدام الشهود، لأن الأضرار التي تلحق بالكذب تتفاوت درجاتها بين أنواع الكذب الذي يعرفها الناس في تعاملهم، فكان الخصر الوارد في هذا النوع من الإفك هو للدلالة على أنه الأشنع والأفطع عند الله، ثم إن هذه العنصرية ماذا تفيد في هذا المقام؟ إنما جيء بها - والله أعلم - لإفادة أن حكم الله في هذه القضايا الحساسة تبني على علمه السابق واخيض بدخائل عباده وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بينما أحكام العباد يجب أن تستند إلى المشاهدة والبيانات الموثوق بها، ولذا يجب عليهم عند سماع الأخبار التي لا

يُطْمَتُونَ إِلَى نَزَاهَةِ مَصَادِرْهَا، يُحِبُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا قَبْلَ إِشَاعَتِهَا
أَوْ بِنَاءِ الْحُكْمِ عَلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ
فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ
نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِذْ تَلَقَّوْنَهُ
بِالْسَّتْكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ
هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾:

﴿وَلَوْلَا﴾: شرطية تفيد الامتناع للوجود، فقد غمركم فضل
الله ووسعتكم رحمته في هذا الابتلاء، فرفع عنكم عذاب الدنيا
وَالْآخِرَةِ، فَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَقَدْ رَفَعَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ بِالتَّوْبَةِ
وَالِاسْتِغْفَارِ وَأَمَّا عَذَابُ الدُّنْيَا فَقِيلَ: إِنَّهُ يَرْفَعُ الْخَطَا عَنْ الَّذِينَ ثَبَتَ
إِدَانَتَهُمْ مِنْ صِدَاقِ الْمُسْلِمِينَ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورِينَ سَالِفًا.

وَقَدْ ذَكَرْتُ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَقَمْ عَلَيْهِمُ الْخَطَا،
وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ صَوِّرَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ مَادَى انشغالها بِهَذَا
الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَمَا عَانَتْهُ مِنَ الصَّرَاعِ النَّفْسِيِّ فِي تَلَقِّي الْأَخْبَارِ
وَتَدَاوُلِهَا فِي الْجَمَاعِ بِشَيْءٍ مِنَ اللَّامِبَالَةِ وَعَدَمِ التَّحَرُّجِ فِي تَرْدِيدِ

الإشاعة تندرا ومزاحا وقتلا للوقت قهونا لشأنا حتى لكأنا مما
يتقاص في الناس من أحداث واقعية أو خيالية.

﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾: وفي مثل هذه
الحالات من المسامرة والترويح عن النفس تغلب على الناس
السذاجة والعفوية في ما يقولون، وتندعم الرواية والأناة التي
تستدعي إمعان النظر وتحكيم منطق العقل، قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
عَظِيمٌ﴾.

وبهذا الإرشاد الإلهي تتعلم الأمة كيف تحترم قوانينها
ودساتيرها، وبالتالي تنضبط وراء قيادتها القائمة على تنفيذ تلك
القوانين التي هي من شرع الله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا
لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ﴾.

وقبل هذه الآية قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ
لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، يشعر التكرار
لجملة: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ في هذه الآية الكريمة مع سابقتها،
بأن السمع الحرام والرضى به، ثم السكوت عن تغيير المنكر لا يقل

خطرا ولا ذنبا عن الكلام الحرام، لأن الذي يروج للإشاعة الكاذبة هو تلقّي الأسماع لها في موقف سلبي لا استنكار لها ولا ردّ، وإن كان السّامع يستنكرها في قلبه فإن ذلك لا يكفي في إيقاف تيار الإشاعة، بل يتوجّب على السّامع أن يبادر إلى الاستنكار والردّ، وإلاّ فسوف يعتبر شريكا للقاتل، ولذا جاء التعبير القرآني في نفى التكلم جاء بصيغة المتكلمين "لنا" ولم يجرى بصيغة المخاطب ليدلّ أنّ المتكلم والسّامع غير النّاكر سواء في ترويح الإشاعة.

والجملة المعترضة "سبحانك" خلال مقولة السّامع، جاءت للتنبيه إلى واجب المؤمن في مراقبة الله والإنابة إليه في مثل تلك المواقف، وعظمة هذا البهتان تتجلّى في تلك المنكرات التي تنجرّ عنها سيما وقد مسّت أعراض من هم في ذروة الأمة وسمامتها، واستهانت بشرف النبوة وقديسيها.

وبعد هذه الجولة من التحقيق في تحديد المسؤوليات، وتوجيه التهديد والوعيد لمستحقّيه، واللوم والعتاب للخائضين فيه، وبيان أوجه الخير التي نالها المسلمون في هذه القضية يجيء الوعظ الإلهي اللطيف أن لا يعود المؤمنون مرة أخرى في ما يستقبلهم من الأبد زمانا ومكانا، مستحيشا عاطفتهم الإيمانية ليحرضوا على

الامثال. ويرى بعض المحققين أنه بمقتضى هذا الشرط يحكم بالكفر على من اعتقد بوقوع الإفك لأن الله تعالى قد برأ عائشة بنصر القرآن، فمن سب عائشة فقد خالف القرآن، وهو ملحظ قوي وتأويل سليم، لأن الآية نزلت في شأن عائشة رضيها.

وفي قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِهِ﴾ أدب رفيع للأمة الإسلامية في ما يجب أن تلتزم به من آداب العشرة والتعامل، وأن الأصل في كل إنسان أنه بريء ما لم تثبت إدانته بطرق شرعية، وذلك من رافة الله ورحمته بعباده، وأن الله رؤوف رحيم، والله أعلم.

وعيد إشاعة الفاحشة

(أ) - النص:

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

(ب) - البيان والتفسير:

بعد الوعيد الشديد على الذين خاضوا في الإفك، وتحذيرهم من أن يعودوا لمثله في المستقبل تحيء هذه الآية بمثل هذا العموم

الذي دلّ عليه الاسم الموصول، تحيء لتقرّر ظاهرة مرضية تصاب بها بعض النفوس الخبيثة ممن تنازعهم خواطرهم الدنيئة ونواياهم الخسيسة في شيوع الفاحشة وانتشارها في الأوساط الظاهرة النقية.

والفاحشة هنا صور متعددة تفنت فيها النفوس الخبيثة قديما وحديثا، ولئن كان الإفك والبهتان من أقبح وأفظع صورها، ومن أفكك وسائلها، فإن هناك وسائل أخرى تمارس وهي تدخل في حجة الفاحشة.

والحق تعالى عندما أراد أن يبحث بذور الفاحشة من المجتمعات المؤمنة عبر بفعل الحب: ﴿يَحِبُّونَ﴾، والحب عمل قلبي محبوب عن الخلق، ولكن الله مطلع عليه وهو كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِمَّا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦). وشيوع الفاحشة يتم على مراحل، أولاها تلك التزعة القلبية الخبيثة، فإذا ما ترعرعت تحولت إلى ترجمة اللسان عنها، فأراد الحق تبارك وتعالى أن يقتلها في مهدها حتى لا تنقل إلى حديث إفك في أعراض الناس، وجلّ من لا عيب له، وكل ابن آدم خطاء.

وللسيئة لوئتها في النفس البشرية، غير أن المؤمن الوفي سباق إلى التوبة، فلا تضيره تلك السيئة إذا سترها الله عنه، أما حين يتسامعها الخلق ويتقاذفونها، فإنها لا تبقى في حجمها الحقيقي، بل تتسع وتكبر على السنة الخلق فإذا بصاحبها تضيق عليه الأرض بما رحبت.

ولذلك نجد ذلك الوعيد الشديد لمن يقوم بذلك العمل الدنيء بإشاعة الفاحشة، وهو العذاب العاجل في الحياة الدنيا بسلب الحياء عنه وحرمانه من العفة في ذاته وفي أهله وذريته فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته».^(١)

وفي هذا المعنى يقول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨).

وستر العيوب وحسن الظن بالخلق نعمة كبرى توفر الدعة والطمأنينة للمجتمع المسلم وتفتح أبواب الخير، بينما شيوع

الفاحشة يجري الناس على الوقوع فيها بدافع التقليد والمحاكاة، ولا يعلم إلا الله كم ينجرّ عن هذه الفعلة الدنيئة من أخطار على المجتمع، وكثير من الناس في غفلة عن ذلك.

يقول الإمام المودودي في تعقيبه على هذه الآية: "إن ألفاظ القرآن شاملة لجميع صور إشاعة الفاحشة والانحلال الخلقي، فهي تنطبق كذلك على إنشاء دور للفاحشة والبغاء وما يرغب الناس فيها ويشير غرائزهم الدنيئة من القصص والروايات والأشعار والغناء والصّور والألعاب والمسارح والسينما كما تنطبق كذلك على المجالس والتّوادي والفنادق التي يعقد فيها الرقص والطرب يشترك فيها الرّجال والنساء على صورة خليعة مختلطة".^(١)

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾:
جواب الشرط مقدر أي: لهلكم ولعذبكم، ولكنه رؤوف بعباده بما أرشدهم إليه من الخير والصّلاح، رحيم بمن تاب وأصلح.

والله أعلم

فضل الله على خلقه عظيم، فلا يخلوا هم بفضلهم

(أ) - النص:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
مَا زَكَّيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمُسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿خُطُوَاتٍ﴾: جمع خطوة، وهو ما بين القدمين، من خطا
يخطو خطوا، والواحدة منها خطوة - بفتح الحاء -، وأما اجمع
فيجيء بفتح الحاء وضمها وسكون الطاء وضمها، والمراد بها هنا
السيرة والصفة. ﴿الْفَحْشَاءِ﴾: كل فعل أو قول قبيح.
﴿زَكَّيْكُمْ﴾: زكا يزكو: صلح، يقال: زكى الزرع إذا صلح ونما،
قال تعالى: ﴿لَأَهْبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مرم: ١٩). بمعنى صالحا تقيا

ظاهره. قال النحوي: واعلم أن الزكّي من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا. ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: من الآلية وهو اليمين، وأكثر ما يستعمل في الحلف على الامتناع، وله وجه آخر في المعنى، من قولك: أَلَوْتُ في كذا، أي قصرت. ﴿الْفَضْلُ﴾: أي الزيادة، والمقصود به الزيادة في الخير والبر ﴿السَّعَةِ﴾: الغنى. ﴿الْأَلَا﴾: أداة للتحضيض على السعي في أعمال البر.

(ج) - سبب النزول:

ثبت من مختلف الروايات أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان ينفق على ابن خالته مسطح بن أثاثه لمسكته وقرابته، فلما خاض في الإفك حلف أبو بكر ألا ينفق عليه، فجاء مسطح يعتذر إليه بأنه كان يغشى مجالس حسّان فيسمع ولا يقول، غير أن أبا بكر بقي واحداً في نفسه عليه حتى نزلت الآية، فكفر عن يمينه، وقال: بلى، إني أحب أن يغفر الله لي. ورجع إلى الإنفاق عليه، وروي عن ابن عباس: أن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك، وقالوا: والله لا نصل من تكلم في عائشة. فنزلت الآية في جميعهم، والأرجح أنها نزلت ابتداء في أبي بكر ومسطح، وتشمل بعموم لفظها كل من شاركوا في قضية الإفك.

(د) - البيان والتفسير:

بعد الجولة التربوية المركزة في الآيات العشر التي تناولت قصة الإفك وما تخللها من تذكير المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته ثلاث مرات، يأتي النداء الإلهي المميز لجماعة المؤمنين ليحذّرهم من العدو اللدود الذي يسري في دمائهم مسرى الدم في العروق، عدوهم الشيطان الماكر الخفي الذي يترصدهم في كل خطوة، ويربص بهم في كل مسلك.

ولئن كان أولئك الأعداء من الفسقة الأفاكين يجوسون خلال الديار، ويتسلّلون من وراء الأسوار لإشاعة أراجيفهم في صفوف المسلمين وإثارة الفتنة من داخل المجتمع، فإن الصراع بين الحق والباطل وحلبة معركته هي أيضا في أغوار كل نفس إنسانية متمثلة في وسوسة الشيطان ووازع الدين والإيمان، إنه لا يفتر عن وسوستكم ومحاولة إضلالكم، إنه يزّين ويغري، ثم يفتن ويغوي، ثم يتسلّل معرضا بعد أن يطمئن إلى فريسته أسيرة في شباكه، وعند مواجهة العدل الإلهي في الحساب والعقاب ينكص على عقبيه متبرّئا ناكرا.

يقول تعالى على لسان الشيطان: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ
 دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
 بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكُمُونَ مِنْ
 قَبْلُ ﴿٢٢﴾ (إبراهيم: ٢٢). ولذا يجب على المؤمنين أن يبالغوا في الحيطة
 والحذر من مسالك الشيطان في كل خطوة بخطورها، حتى يأمّنوا
 مزلق الفحشاء والمنكر.

وخصّ الله تعالى النهي بالمؤمنين في أول الآية تنبيها لهم لمصدر
 الفتنة حتى لا يقعوا فيها مستقبلا، ثم عمّم بأداة الشرط ليشمل
 كلّ الفرقاء المعنيين من الذين خاضوا في الإفك ومن الكفار
 والمنافقين، وأما تخصيص المؤمنين فللتشديد عليهم في ترك المعصية
 لأنّ ذلك هو الأنسب للإيمان الذي وصفهم الله به.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ
 أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

يتكرر هذا التذكير الإلهي بفضل الله ورحمته على المؤمنين في
 شأن تزكية النفس، وأنّ ذلك يتم بفضل الله، لأنه تعالى لو كان
 يجازينا بالعدل والميزان لما أفلحنا في الحساب، فكم من الألطاف
 الإلهية في حادثة الإفك تحققت للمجتمع المسلم، وكم من خير

عظيم لحقه منها وإن خفي على كثير من الناس، ولذلك تكرر ذكر ذلك الفضل ثلاث مرات، لأن ذلك وحده هو مبعث الفرح والسرور في قلوب المؤمنين كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

وقد صور رسول الله ﷺ ذلك الصراع الباطني بين الحق والباطل في ذواتنا حين جعل الملك رمزا للحق والخير وجعل الشيطان رمزا للباطل والشر فقال: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾^(١).

والتعبير على عمل الشيطان بالخطوات يوحى بدسائسه ومكره في استدراج الإنسان إلى المعصية بمختلف الوسائل، وحسبه أن يغري الإنسان بالخطوة الأولى، فإن لم يدرأ عنه تلك الوسوسة

١- رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب تفسير القرآن، باب سورة البقرة، رقم ٢٨٩٩، وقال: هذا حديث حسن غريب.

بذكر الله والعياذ به، فإن الشيطان يفضي به إلى الخطوة الثانية حتى يوقعه في فخه، باتباع تلك الخطوات على طريق الفحشاء والمنكر، فكان من فضل الله على النفوس المؤمنة أن جعلها في منعة من تلك المزالق بطهارتها وزكاتها، وهي في ذلك لا تركز إلى الغفلة والتسيان، ولا تسأوف في المسارعة إلى التوبة وطلب الغفران، والله يزيكها ويسر لها أسباب الهداية والتوفيق قال تعالى:

(أ) - ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٧).

(ب) - ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠).

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: وهما الصفتان المناسبتان للذات العلية في هذا المقام، إذ أن بواعث التناق في نفوس البشر لا يعلمها إلا الله تعالى كما تقدم، فهو السميع لما يتردد في مجامع الناس من أقوال عليم بما يتردد في نفوسهم من خواطر.

﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْقُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

وقد سبق في ذكر سبب النزول أن أبا بكر رضي الله عنه حلف أن لا ينفق على ابن خالته مسطح لأنه كان مع الخائضين في قضية الإفك كما كان غيره من بعض ضعاف النفوس من الصحابة، فجاء النهي الإلهي عن مثل ذلك الحلف: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾.

و﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ هم الأغنياء الموسرون الذين لهم اليد العليا في الإنفاق على غيرهم، فبدأ الله بالفضل وثني بالسعة لأن الإنسان قد يكون غنيا، ولكنه ليس بفاضل في معاملاته للناس، ومن ثم فهو لا يستحق المدح والثناء كما قال زهير:

ومن يك ذا فضل فيخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فما أبلغ هذا التنظير بين صفات الله العلية وبين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من العفو والصّحح، حتى قال أبو بكر وقد تأثر بهذه الآية فسارع إلى الامتثال وهو يقول: بلى يا رب، إنني أحب أن تغفر لي. فكفر عن يمينه وعاد إلى الإنفاق على قريه.

ويرد على هذه الآية خلاف فقهي فيمن حلف على يمين ثم رأى الخير في غيره؟ أيكفر عن يمينه ويفعل الذي هو خير؟ أم أن رجوعه إلى الخير هو الكفارة، فلا كفارة عليه غيرها؟، لأن

الرّسول قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه». ^(١)

فيرى المحققون أن إتيانه الذي هو خير لا يسقط عنه الكفارة بدليل عموم آية كفارة اليمين في سورة المائدة وبدليل حديث الرّسول السّابق: «وليكفر عن يمينه».

والتحقيق في قضية الحلف بالله على قطع الخير هو في ذاته ذنب يحتاج إلى التّوبة، فهي تتم بالرجوع عن ذلك الحلف والإتيان بالذي هو خير.

وأما اليمين فلا محالة منه إلا بالكفارة، وهذا ما رجحه كل من الإمام المودودي والإمام الشّيخ ييوض في تفسيره.

والله أعلم

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب نذب من حلف بيميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، رقم

جزاء قذف المحصنات، وتواؤم الناس في السلبية والخبث

(أ) - النص:

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾: ﴿يَرْمُونَ﴾: بمعنى القذف
بالإفك والبهتان. ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: بمعنى المتزوجات أو العفيفات
وإن لم يتزوجن، وهي أيضا بمعنى المرأة الحرة الغافلة هي التي تعف
عن المعاصي والفواحش، فهي على الفطرة السليمة. ﴿الْغَافِلَاتِ﴾:
اللعن هو الطرد من رحمة الله، والإبعاد عن حظيرة المؤمنين.
﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾: أي أنها تنفك عن
إرادة صاحبها فهي تنطق بإرادة الله. ﴿يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾:
الذين هنا بمعنى الجزاء والحق بمعنى الثابت العادل. ﴿الْخَبِيثُونَ﴾:

﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾: صفة من الطيبة والخبث وهما متضادتان، والمعنى أن الناس يتواءمون في طباعهم كما يقول المثل: "إن الطيور على أمثالها تقع". ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: الإشارة إلى صنف الطيبين المتكافئين مع بعضهم بعض والمقصود بهم عائشة وصفوان.

(ج) - البيان والتفسير:

لقد كانت حادثة الإفك وما تخللها من الوعيد الشديد كافية لرسم إطار الطهر والعفاف للمجتمع المسلم، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ونظرا لما لهذه القضية من حساسية بالغة، ودفعاً لأيّ توهّم أن تكون من خصوصية رسول الله وآل بيته، اقتضت حكمة الله أن يتكرر الإرشاد الإلهي بما هو أعم وأشمل، ويرتب عليه ذلك الوعيد الشديد، فقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فالجملة مؤكدة بـ "إن" مع اختيار الاسم الموصول والفعل المضارع: ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾، مما يدلّ على رسوخ تلك الصفة فيهم واستمرارها وكذا التعبير بالرّمي، حتى لكان تلك الألفاظ

القاذفة هي رصاصات لا تخترق الأجساد ولكنها تخترق الأعراض
فتمزقها، وجاء وصف المؤمنات متأخرا عن وصفي المحصنات
الغافلات لأنهما وصفان خلقيان معروفان حتى عند الجاهلين قبل
مجيء الإسلام كما قالت هند بنت عتبة لرسول الله عند مبايعة
النساء له عن عدم الزنا، فقالت: أوتزني الحرة يا رسول الله؟.

فموضوع الآية هو صون العفاف والطهر بسياج من الإيمان
بالله، فجيء بالوصفين مقدمين على الإيمان، وذلك من بلاغة
القرآن الكريم، واللعن في الدنيا والآخرة يعني الإبعاد عن حظيرة
المؤمنين حتى لكان القاذف كلب عقور يتحاشاه الناس، وقليل ما
يرعوي هؤلاء عن غيهم فيتوبون ويرجعون، ذلك لأن الطبع اللئيم
لا يرضيه إلا معاناة الناس وفتنتهم.

وحسبهم خزيا في الآخرة أن: ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فهذه الألسنة الشاهدة
على أصحابها يوم القيامة، لأنها هي الناطقة بذلك البهتان في الدنيا
فما بال الأيدي والأرجل؟، إن لها هي الأخرى حظها من الإثم،
لأنها تتحرك وتسعى وتجوس خلال الديار لنشر الفحش والبهتان
وفق إرادة صاحبها وهو مالك لزام جوارحه في الدنيا، ولكنه في
موقف الحساب يسلب الله منه تلك الإرادة فيبقى تلك الجوارح

طوع إرادته ينطقها كيف يشاء شاهدة على أصحابها بما اقترفوه من الآثام، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (فصلت: ٢٠-٢١).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: أي يوفي الله لهم جزاءهم كاملاً بما يستحقونه لأنهم أصرّوا على تلك الجريمة من هتك أعراض الناس التي جعلها الله حراماً، سيما كرامة المرأة المؤمنة فهي أشد حساسية وأبلغ تأثيراً في البيت المسلم: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥).

فإذا كان ذاك قد نزل في حق خير القرون وفي حق أمهات المؤمنين، فكيف بنا نحن في هذه الجاهلية الفاسقة الفاجرة التي نحياها اليوم، وأين أعراض نسائنا من الواقع المعيش، وسوق الفجور نافقة، وأبراق الفحش والدعارة صادعة؟ وصور الخلاعة منشورة في فتنة وإغراء عبر فجاج الأرض وفضاء السماء كما قال الشاعر:

ضاقَت فجاج الأرض منهم بالخنا فغزوا فضاء الكون بالإرسال
عبر الأثير إلى الخلائق كلّها يغزونها بالشر والإضلال

وبما أن الانجذاب الطَّبَاع لبعضها البعض طيبة وخبثا في الرجال والنساء فإن الحق تبارك وتعالى يوضح تلك السَّنة التي هي في صميم الحياة الاجتماعية للناس حتى لا يخطئوا التقدير في نظرهم إليهم فقال تعالى: ﴿الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيَّاتُ لِلطَّيَّينَ وَالطَّيَّيُونَ لِلطَّيَّاتِ أُولَئِكَ مُبَرَُّونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ومن الأمثلة المشهورة في هذا المعنى قولهم: "إن الطيور على أمثالها تقع"، "كل إناء بما فيه يرشح".

وقد بدأ الله بوصف المرأة خبثا وطيبة لأنها هي محور الانجذاب والإغراء كما قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من النساء». ^(١) فالطبع اللئيم لا يتلاءم معه إلا نظيره مهما حاول أن يتظاهر على عكس ذلك، لأن الأرواح جنود مجندة كما قال رسول الله: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». ^(٢)

١- تقدم تخرجه، ص ٢٢ .

٢- رواد البخاري من حديث عائشة، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، رقم ٣٣٣٦.

فَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ عَامَّةً فِي مَدْلُوحِهَا فَإِنَّمَا وَثِيقَةُ الصَّلَاةِ بِحَادِثَةِ الْإِفْكَ، لِأَنَّ كَلَامَ مَنْ رَسُولُ اللَّهِ وَصَاحِبِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتِمَّ بَيْنَهُمَا تِلْكَ الْمَصَاهِرَةُ الشَّرِيفَةُ لَوْ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُمَا الطَّهَرُ وَالْعِفَافُ وَالطَّيِّبَةُ وَالنَّقَاءُ وَبِالتَّالِي فَهُوَ إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَبَيَانٌ لِمَعْيَارِ التَّقْسِيمِ لِلنَّاسِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَرَاخِيفِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَرَأَ سَاحَةَ أَوْلَئِكَ الطَّيِّبِينَ وَوَعَدَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّضْوَانِ جَزَاءَ مَا ابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهِ فِي تِلْكَ الْهَزَةِ الْعَنِيفَةِ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ

آداب الاستئذان لدخول البيوت

أ- النص:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ادْجِعُوا فَادْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾: استئناس: جعله بعض العلماء مرادفاً لمعنى الاستئذان، بينما يراه آخرون أعم وأشمل، وفسروه بقولهم: أن تستعلموا من في البيت. ويتأني المستأنس قدر ما يعلم أن أهل البيت قد شعروا به ويمكن الاستئناس بأية وسيلة تحقق هذا الغرض كالدق على الباب أو استعمال الجرس، وكالتنحج مثلاً. ﴿وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾: صيغة السَّلام كما علمها رسول الله من أول الإسلام هي: "السَّلام عليكم"، والردّ يكون بالواو "وعليكم السَّلام" مع الزيادات التي تكون في الردّ بأحسن من التَّحية كما أمر الله كقولك: "ورحمة الله تعالى وبركاته". ونهى رسول الله أن يقول أحد في التَّحية ابتداءً: «عليك الله، أو عليك سلام الله وقال ثلاثاً: إنها تحية الميت»^(١). ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾: هو أدلّ على نبلكم وطهارة نفوسكم. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾: المتاع من الأمتعة المختلفة، أجهزة بضائع، سروج رحال... إلخ. وفسر المتاع بالمصدر أي التمتع والانتفاع كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا

١ - رواه الطبري من حديث عدي بن ثابت، تفسير القرآن العظيم:

﴿قَلِيلٌ﴾ (النساء: ٧٧).

ج- بين يدي النص:

روى الإمام القرطبي في سبب النزول عن الطبري: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فترت الآية. فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله: أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن؟ فترت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٩).

د- البيان والتفسير:

أشرق نور الإسلام رحمة للعالمين فواجه في أول مراحل مجتمعا فطريا ساذجا تتفاعل فيه عوامل شتى من النزعات والأهواء، ومن العادات والتقاليد. وقد عرف لونا من الطبقة أملت عليها الظروف القاسية التي عاشها في بيئة تدعو للعنف والقسوة وتمجد الشجاعة والقوة وتتنافر للغارة والغزو، فطبقة الأسياد لها مقامها وحرمتها

وآدابها الاجتماعية الموروثة، أما طبقة العبيد والإماء فهي المرتع المباح للإشباع الشهواني وإرضاء نزوات الشباب، أضف إلى ذلك ما تستلزمه حبّ الفروسية من لهو وفسوق في سمرات الخمر والميسر.

فليس عجيباً أزاء هذا الوضع المألوف أن يتدرج الإسلام بأسلوبه الحكيم وهو يتصدى لمحاربة تلك الآفات الاجتماعية الخطيرة، ولا أدلّ على خطورتها من استمرار رواستها حتى نتأت كالفنائع في مجتمع المدينة أي بعد خمسة عشر عاماً من الإعداد التربوي والنفسي لصحابة رسول الله وهم في بركة الوحي يتطهرون، ولو أن ظهورها قد مسّ القاعدة الشعبية العامة هان الأمر.

أما وقد تطاول الإفك والبهتان إلى مراكز القيادة وذروتها فذلك أمر يتطلب الحزم والصرامة في بتر الأعضاء الفاسدة بعملية جراحية لا فكاك منها، فجاءت تلكم الأحكام الزاجرة في أول السورة. وبعد تشخيص مكنم الداء بحديث الإفك تأتي هذه الأحكام التي تعتبر كالمضادات الحيوية الضرورية للعلاج الوقائي في فترة النقاهة، ولشيوخ الفاحشة أسباب ودواع تكون ذريعة لها، والله تعالى عندما نهي عن الزنا قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّنى إِنَّهُ

كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ (الإسراء: ٣٢).

والإسلام في كثير من أحكامه يبينها على سد الذريعة لضمان الناعة اللازمة لطهر المجتمع وبقائه، فبدأ بمحضن الأسرة ومستقرها، فأحاطه بمالة من القدر والحرمة لا يمكن لأي غريب عنها أن ينتهكها، وقد جعل الله تعالى غريزة حب المأوى والتفاني في المحافظة عليه أمرا طبيعيا لدى كل الكائنات، فكيف بالإنسان العاقل المتحضر؟.

قال جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

فالتداء الإيماني المكرر هنا بعد التداء التحذيري للذين آمنوا أن يتبعوا خطوات الشيطان، للإشعار بأن هذه الآداب، وإن تبدو أنها تأخذ طابع اللياقة الاجتماعية مما تختلف فيه عادات الناس، فإنها بحكم الإرشاد الإلهي تأخذ الطابع الديني في الحكم الملزم لجماعة المؤمنين، والحكمة في ذلك هو إضفاء الطابع الوحدوي لتلك الآداب، وبالتالي تمييز المسلمين بها عن سواهم من الملل والتحل، وظلما ركز رسول الله على هذا التمييز في كثير من إرشاداته وهو

يقول: «خالفوا اليهود والنصارى»^(١)، أو «خالفوا المجوس»
و«خالفوا المشركين»^(٢).

ينهانا ربنا - تبارك وتعالى - أن ندخل بيوتا غير بيوتنا حتى
نستأنس ونسلم على أهلها الشرعيين، وظاهر النهي أنه يجب علينا
أن نجتمع بين أمرين: الاستئناس والتسليم، فالاستئناس يتم بكل ما
يشعر أهل البيت بطلب الزيارة، ثم انتظار تلييتهم أو رفضهم،
وليس لذلك شكل يلتزم به، وإنما هو موكول إلى كل ما يتحقق
به الغرض المطلوب مما عرفه الناس قديما وحديثا.

وهناك بعض الروايات الصحيحة عن رسول الله علم فيها
بعض الأصحاب كيف يستأذنون عليه. من ذلك ما روي أن
رجلا استأذن على النبي ﷺ فقال: أأج؟ فقال النبي لأمة يقال

١- رواد ابن حبان في صحيحه من حديث شداد بن أوس، رقم ٢١٨٦.
بلفظ: «خالفوا اليهود والنصارى فأنهم لا يصلون في خفافهم ولا في
نعاهم».

٢- رواد مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: «خالفوا المشركين أحفوا
الشوارب وأوفوا اللحى»، كتاب الإيمان، باب خصال الفطرة، رقم ٢٥٩،
ورواد من حديث أبي هريرة بلفظ: «جزوا الشوارب وأرحوا اللحى خالفوا
المجوس»، رقم ٢٦٠.

خا روضة: «قومي إلى هذا فكلميه فإنه لا يحسن استأذن، فقولي له: يقول: السلام عليكم أأدخل؟، فسمعها الرجل فقالها، فقال: أدخل». (١)

أما تكرار ذلك ثلاثا فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله قال: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع». (٢) وكان رسول الله يطبق ذلك عندما يزور أصحابه، أما وجوب الاستئذان مع التسليم، أو أيهما يقدم؟ فيقول في ذلك الإمام ابن عاشور: "وأما فائدة السلام مع الاستئذان فهي تقوية الألفة المتقررة فلا تقتضي أكثر من تأكيد الاستحباب". ثم قال: "وقد جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المقيد للتشريك فقط، فدللت على أنه إن قدم الاستئذان على السلام أو قدم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه، وورد في أحاديث كثيرة الأمر بتقديم

١- رواد ابن كثير من حديث عمرو بن سعيد الثقفي، تفسير القرآن العظيم: ٢٨١/٣؛ وروى نحوه أبو داود من حديث ربعي، كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان، رقم ٥١٧٧.

٢- رواد البخاري من حديث أنس، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا، رقم ٦٢٤٥.

السَّلام على الاستئذان فيكون ذلك أولى ولا يعارض الآية".^(١)

والأحوط لمراعاة حرمة البيت أن لا يقف المستأذن تجاه باب البيت، ولكن يقف من ركنه الأيمن أو الأيسر كما كان يفعل ذلك رسول الله، سيما إذا كان باب الدَّار مفتوحا وليس على مدخله ستار، فقد روي أن رجلا جاء إلى النبي فوقف على بابه يستأذن، فقام على الباب مستقبلا له، فقال النبي ﷺ: «هكذا عنك أو هكذا، فإنما الاستئذان من النظر».^(٢)

ذلك أن العرب في جاهليتهم كانوا لا يتحرَّجون من الدَّخول في بيوت النَّاس بغير استئذان فتقع أنظارهم على النَّساء فنهى الله عن ذلك، وقد جعل العلماء حق السَّمع إلى أسرار النَّاس كحق النَّظر حتى أخذ بعضهم بظاهر حديث يقول فيه رسول الله: «من أطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه».^(٣)

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٩٨/١٨-١٩٩.

٢- رواه أبو داود من حديث هزيل، كتاب الأدب، باب في الاستئذان، رقم ٥١٧٤.

٣- رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب الأدب، باب في الاستئذان، رقم ٥١٧٢.

فأجاز هؤلاء أن تفقأ عين من ينظر في دار قوم، ولا ضمان عليه، والأرجح إذا حدث ذلك أثناء ومنعه وردّه عن النظر حتى اضطرّ أهل الدار إلى مدافعته.

وكان من تربية رسول الله لأصحابه أن أرشدتهم إلى الاستئذان والإيناس حتى وهم يدخلون إلى بيوتهم خشية أن يياغثوا أهلهم على حالة لا ينبغي أن يراهم عليها فقد سأل رجل النبي: أأستأذن على أمي؟؟ قال: «نعم» قال: إنما ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أحب أن تراها عريانة؟». قال الرجل: لا، قال: «فأستأذن عليها».^(١)

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

ومن الآداب الشرعي أن يذكر المستأذن اسمه عند ما يقال له: من؟، ولا يقتصر على قوله: أنا، أنا. فإن عمر رضي الله عنه كان يفعل ذلك عندما يستأذن على رسول الله فيقول: أيدخل عمر؟، هكذا

١- رواه مالك من حديث عطاء بن يسار مرسلًا، كتاب الاستئذان، باب

يَسْمِي نَفْسَهُ. وقد لا يجيب أهل الدار للمستأذن بعد ثلاث، فلا داعي بعد ذلك للإلحاح، وقد يقال له: ارجع، فيجب على المستأذن أن يرجع دونما تأثر أو غضب.

وقد علل الله الرجوع بأنه أذكى وأنفع للمستأذن وأهل البيت معاً، لأن اللياقة الاجتماعية تقتضي تلك الآداب العالية فلا معنى فيها للحاج والعناد أو للتشنج والغضب.

والله تعالى يبارك تلك العلاقات ما دامت تتم وفق ما رتب الله فيها من الآداب، ولذلك جاء هذا التذييل المناسب بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، أي نحاسكم على دخائل نفوسكم ونواياكم. لأنك -أيها المستأذن- عندما تبقى أمام الدار وقد قيل لك: ارجع، فإنك تكون مثار قلق وحذر من أهلها للتحسس أو التلصص.

ثم قال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

جاء هذا الحكم الإلهي بالنسبة للبيوت غير المسكونة جاء لسؤال أبي بكر وجهه لرسول الله ﷺ لما نزل الحكم الأول بشأن

البيوت المنسكوبة فقال أبو بكر: يا رسول الله: أرايت بيوت
التجار ومنازل الطرقات للمسافرين؟؟ فترلت الآية.

وهذا النوع من البيوت مما عرفه الناس قديما وحديثا ويعرف
اليوم بالمؤسسات العمومية من مقاد وفنادق ومتزهات، وقاعات
عامّة، بل حتى المحلات التجارية والإدارية والقضائية... إلخ. فهذه
وأمثالها مما لا تكون خاضعة بأحد لا حرج علينا في دخولها
والانتفاع بما فيها من مرافق وأثاث، وإن اقتضى التنظيم اتخاذ
بعض القائمين عليها من كتاب وحراس، أو الالتزام ببعض
الإجراءات الإدارية مما هو معروف اليوم.

وبما أن المسلم يتعد عن الانتفاع بأحرام فقد ناسب أن يرتبط
ذلك بمراقبة الله الذي لا تخفى عنه خافية مما نبديه وما نكتمه من
تصرفاتنا، والله أعلم.

غَضَّ البَصَرُ هُوَ صَمَامُ الْأَمَانِ مِنَ الْإِزْوَاقِ فِي الْفَحْشَاءِ

أ) - النص:

قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوْنَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكٰى لَّهُمْ

إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿يَغُضُّوا﴾: من مادة الغَضَّ أي التَّغَصُّ والحفظ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ (لقمان: ١٩). وغَضَّ بصره بمعنى صرفه عن التحديق في شخص أو تثبيت النظر إلى شيء ما. ويكون ذلك إما حياء أو احتشاما أو خوفا ومذلة، قال جرير يهجو شاعرا:

فغَضَّ الطرف إنك من غير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: يحتمل معنيين: سترها عَمَّنْ لا يحِلُّ أي ستر العورة على ما حدَّته الشريعة في كل من المرأة والرجل، والمعنى الثاني: حفظها عن ارتكاب الفاحشة، واللفظ عام يراد به المعنيان. ﴿أَزَكَّى لَهُمْ﴾: أي أظهر لصيانة دينهم وعرضهم، ولا يراد به المفاضلة، بل تقوية المعنى.

ج) - البيان والتفسير:

على ذكر أحكام الاستئذان وتفصيل آداب الزيارة. وقوله **العليه**: «إنما الاستئذان من النظر»، أعقب ذلك هذا الأمر الإلهي بغضَّ النظر، ذلك لأن إذن صاحب الدار بالدخول لزائره لا يعني أبدا إباحة الاطلاع والكشف عن أسرارهِ في بيته أو تحديق النظر

إلى حرمانه، إذا لم يكن لصاحب الدار غرفة خاصة لاستقبال الزائرين، وبما أن عادات الناس وأعرافهم تختلف في تنظيم شؤون بيوتهم فإن النظر تختلف مراتبه في أحكام الحلال والحرام بين الكراهية والتحريم والاستحباب، ولذلك جيء بـ"من" التبعية، إذ أن الكف التام عن النظر غير ممكن في غالب الأحوال، وإلا أصبح الناس كلهم في حكم العميان، وإما المقصود هي حدة النظر بملء العين لما لا يليق، كنظر الرجال إلى النساء أو إلى العورات والمناظر الفاحشة.

وضبط الحواس من أن تنفلت من قيودها المشروعة سيما النظر هو من الإجراءات الوقائية التي يهدف الإسلام من ورائها صيانة المجتمع من مغريات الاستشارة والتهييج للغرائز الجنسية بين الجنسين، لأن هذه الغرائز ليست في حاجة إلى ما يثيرها إذ جعل الله لها دوافع فطرية هي في حاجة إلى التلبية والإشباع بطرق حلال كما أمر الله، وإلا أصبحت ملحاحة مهتاجة لا يشبع لها سعار ولا ينطفى لها أوار، يقول رسول الإسلام: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فرنا العينين النظر، وزنا اللسان التطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والتففس تتمنى وتشتهى، والفرج

يصدق ذلك أو يكذبه»^(١).

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾:

لم يتكرر النداء المباشر من الله للمؤمنين، بل جاء أمر الله لرسوله بالتبليغ للمؤمنين، وفي ذلك من التنويع اللفظي ما فيه من البلاغة، ثم إن الأمر بالتبليغ: ﴿قُلْ﴾ فيه تأكيد على ما يبلغ بأنه من أمر الله للمؤمنين الملتزمين بأحكامه. ﴿يَغُضُّوا﴾: مجزوم في جواب الأمر، والغض هو التقصان وحرف النظر عن بعض الشيء، -أي من النظر المحرم- إلى العورات إلى مفاتن النساء مما يثير غرائز الشهوة لأن النظر بريد الزنا ولأنها تدعو إلى التشهي ثم النزوع إلى إرضاء الشهوة الحرام، وقد أحسن أمير الشعراء حين رتب مراحل النزوح إلى الفاحشة حين قال:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وكما نصح الرسول ﷺ الإمام عليّ إذ قال له: «يا علي لا

١- رواد البخاري بلفظ قريب من حديث أبي هريرة، كتاب الاستئذان، باب زنا الخوارج دون الفرج، رقم ٦٢٤٣. ورواد أحمد في المسند بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة، رقم ٨٩١٩، (٣٧٩/٢).

تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة».^(١) وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه».^(٢)

وقد تعشق الأذن بالسَّماع -أيضا- كما عبّر عن ذلك بشار بن برد: "والأذن تعشق قبل العين أحيانا". ولكن حاسة البصر قد ربطها المولى تبارك وتعالى في هذه الآية بالفروج وحفظها، وذلك لما لها من التأثير المباشر في استئثار الغريزة الجنسية وهي من أقوى الغرائز وأشدّها إلحاحا على الإنسان للإشباع. فأمر الله بحفظ الفروج لا يعني الوقاع وحده بل يشمل صيانتها عن الكشف أو النظر إليها إلا لمن أحلّ الله من الأزواج أو في حالة الضرورة للإنقاذ والإسعاف والمعالجة الطّبية، إذ تدعو الحاجة -أحيانا- إلى

١- رواد الترمذي من حديث بريدة، كتاب الأدب، باب ما جاء في نظرة المتعاجة، رقم ٢٧٧٧، وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواد الخاكم في المستدرك من حديثه أيضا، رقم ٢٧٨٨، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

٢- رواد الخاكم في المستدرك من حديث حذيفة، رقم ٧٨٧٥، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

مثل ذلك النظر إلى وجه المرأة من غير محرم لها أو إلى العورات من الرجال والنساء والضرورة تقدر بقدرها، ولذلك عقب الله الأمر بقوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، ويتمثل الطهر والزكاء للنفس في الابتعاد عن محارم الله فلا تتعقد نفوسكم بالشعور بالذنب إن أنتم ارتكبتم المحرم، ولا تضيق بالحرمان في حالة الكبت والتعفف.

فمراقبة الله والتزام أحكامه هي الدرع الواقى وصمام الأمان من الانزلاق والوقوع في الحرام وقد رتب الله على ذلك الجزاء الأوفى فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠-١١)، والله أعلم.

حكم الحجاب، والنظر إلى زينة المرأة

أ- النص:

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا
عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعَلِّمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ
وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿زَيْنَتُهُنَّ﴾: الزينة: الحسن والجمال، من الزين. قال تعالى:
﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١). والزينة طبيعية،
ومكتسبة بالأصباغ ووسائل التحميل، قال المتنبّي:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرفة وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

﴿يُخْمَرُهُنَّ﴾: الخمر: مفردة خمار، وهو ما تضعه المرأة على
رأسها ويتدلّى على الجيد والأذنين والصدر، وكانت المرأة في
الجاهلية تشدّه إلى الوراء. ﴿وَلْيَضُرَّيْنِ﴾: تمكين وضعه جيّداً حتى
يكون ساتراً. ﴿جَيَّوبُهُنَّ﴾: الجيوب: مفردة جيّب - بفتح الجيم -
طوق القميص مما يلي الرقبة، قال تعالى لموسى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (التل: ١٢). ﴿لَبَعُولَتُهُنَّ﴾:
جمع بعل، وهو الزوج، وأصله اللغوي الربّ والمالك. قال تعالى:
﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصفّات: ١٢٥). اسم
صنم لقدماء العراق. ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: أي العبيد والإماء.

﴿غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ﴾: الأربُ والأربةُ أي الحاجة، والمراد: ليس لهم حاجة إلى ملامسة النساء في الفراش. ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾: كناية عن خلوا البال من شهوة النساء.

(ج) - البيان والتفسير:

كان أمر الله تعالى بغضّ البصر وحفظ الفروج موجّهاً للمؤمنين بصفة عامّة، وهو يتناول الرّجال والنساء كما تقررت بذلك أغلب أحكام الشريعة. وبما أن النساء هن أحكام تخصّص من في هذا المقام أعقب الله تعالى على ما سبق بأمر المؤمنات بنفس الأوامر السابقة لأن الدوافع الجنسية واحدة في الجنسين، غير أن الإغراء والاستشارة بالزينة مما جبلت عليها المرأة لإلفات نظر الرّجال إلى جمافها، وذلك أمر فطري في طبيعتها، وليس من الحكمة مقاومة ذلك الدافع الأثوي في المرأة فنحطّم بذلك شخصيتها، ولكن الإسلام في منهجه التربوي ينظّم تلك الرغبات الفطرية بالكيفية التي يجعلها تؤدي وظيفتها على الوجه السليم.

ومن الزينة ما يكون هبة من الخالق تتفاوت مفاتها الطبيعية من امرأة إلى أخرى، ومنها ما تصطنعه المرأة لنفسها من وسائل التطرية والتجميل لباساً وحلياً وأصباغاً، ولكل بينة تقايلها

وأعرافها في ذلك قديما وحديثا، وكانت النساء في الجاهلية لا يسترن زينتهن على الرجال، كما تفعله النساء السافرات اليوم.

يقول العلامة الزمخشري في تفسيره عن نساء أهل الجاهلية: "كانت جيوهن واسعة تبدو منهن نحورهن وصدورهن وما حواليتها، وكن يسدن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة، فأمرن بأن يسدنها من قدامهن حتى يغطيها".^(١)

ويبدو - والله أعلم - أن للمرأة ما للرجل من الانجذاب الشهواني إذا هي حُدت بصرها إلى الرجل، ولكنهما يستويان في حكم نظر أحدهما إلى الآخر، لأن المرأة بحكم النصوص الشرعية في الحجاب هي عورة لا يخل للرجل الأجنبي النظر إليها مطلقا، وليس الرجل كذلك، وبالتالي لا يحرم على المرأة أن تراه مطلقا، بل المحرم عليها أن تنظر إليه بشهوة تملأ بحسنه وجماله، لأن ذلك فسق يوقعها في المراتق أحيانا سيما إذا كانت متزوجة، إذ تقع في التفور ثم في البرود الجنسي مع زوجها مما يؤدي بما غالبا إلى الفرقة والطلاق، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي

فَسَةِ أَضَرَ بِالرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».^(١)

ولذلك أمر الله المؤمنات بغضّ أبصارهنّ إلا ما يكون من النّظر العنوي وهنّ في طريقهنّ إلى بيوت الله أو القيام بمختلف الزّيارات وقضاء حاجتهنّ الضّرورية في إقامة أو سفر. وقد أثبتت الرّوايات المختلفة عن رسول الله أنّه بعد نزول الحجاب أمر النّساء بالاحتجاب حتّى عن العميان، اتقاء للفتنة لأنّه كما قال بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
كما ورد ذلك في قصة ابن أمّ مكرم عليه السلام إذ دخل على النّبي
وعنده أمّ سلمة وميمونة، فقال لهما رسول الله: «احتجبا منه».
فقال أمّ سلمة: "يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا
يعرفنا؟. فقال رسول الله: «أوعميان أن أتما؟، أولستما
قبصرا نه؟».^(٢)

يقول الإمام المودودي معلقا على هذه القصة: "ما استفاد من

١- تقدم تخرجه، ص ٢٢.

٢- رواه الترمذي من حديث أم سلمة، كتاب الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، رقم ٢٧٧٨. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الجمع بين الروايات المختلفة أن ليست الشدة في نظر النساء إلى الرجال الأجانب مثل الشدة في نظر الرجال إلى النساء الأجنبية، لا يحلّ لهن أن يقصدن النظر إليهم وجها لوجه في المجالس، ولكن يحلّ لهن أن ينظرن إليهم وهم يمشون في الطرّق أو يلعبون ألعاباً غير محرّمة من البعيد".^(١)

قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، أمر الله المؤمنات أن يضربن بخمرهن على جيوبهن، والتعبير بالضرب لإفادة التمكن والمبالغة في التستر، ولما كانت النساء الجاهليات يلقين بخمرهن إلى الوراء فتكشف أجياذهن وصدورهن للرجال بما يثير شهوتهم، أمر الله تعالى بلي الخمار على الجيوب، وبذلك يسترن النحور والصدور، أي يسدّن الخمار من قدامهن كما قال الرّمحشري - رحمه الله -: "وقد روى البخاري عن عائشة صورة تطبيقية لذلك من نساء الأنصار والمهاجرين فقالت: "يرحم الله النساء المهاجرات الأوّل". وفي رواية: "إني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشدّ تصديقا لكتاب الله ولا إيماناً بالتّزويل، لما نزل: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكف

مروطهن فاختمن بها، ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبد الرحمن وقد اختمرت بشيء يشفّ عن عنقها وما هنالك فشقته عليها وقالت: إنما يضرب بالكثيف الذي يستر". فلا يكون ثوبها واصفا ولا كاشفا، لأن المرأة كلها عورة ما عدا وجهها وكفها، فقد روت عائشة رضي الله عنها أن أختها أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه».^(١)

وهل تكشف المرأة عن بعض أعضائها أمام محارمها؟.

إن الموانع الاجتماعية والقيود العرفية قد تفرض على المرأة بعض التخفيف وهي مقبلة على واجباتها البيتية من طبخ وغسيل وترتيب للأثاث، فتكشف عن ذراعيها مثلا أو عن جزء من ساقها أمام محارمها كالأخ أو الوالد، ولا تتعدى تلك الحدود المعقولة كما تفعله نساء اليوم، إذ يكشفن عن شعورهن وصدورهن، أو يلبسن ما يصف وما يكشف كما تقدم فإن ذلك

١- رواه أبو داود مرسلا من حديث عائشة، كتاب اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها، رقم ٤١٠٤.

لا يجوز إلا في بيت الزوجية.

ثم ما هو حدّ عورة المرأة بالنسبة لامرأة مثلها؟.

قال العلماء: إن حدودها هي حدود عورة الرجل بالنسبة للرجل - أي ما بين السرة والركبتين - . وأرى أن الأحوط للمرأة المتدينة أن لا تعرض زينتها حتى لامرأة مثلها خشية الوقوع في ما لا تحمد عقباه من شذوذ السحاق وما إليه، وربما أذاعت المرأة النازرة إلى أختها مفاتن جسدها فيكون ذلك سببا في إغراء السفهاء بها أو غيره زوجها عليها فتقع في مشاكل هي في غنى عنها، وحسبنا من الواقع المعيش اليوم أمثلة مؤسفة خربت كثيرا من البيوت أو شوّهت سمعة كثير من الأسر. فاللهم إنا نسألك البر والتقوى والعمل بما ترضى، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾:

كرّر الله النهي عن إبداء الزينة للتأكيد على سترها في كل حالة ومع أي أحد إلا من استثناهم من المحارم الذين فصلتهم الآية أو من ثبتت حرمة على المرأة من نصوص أخرى من القرآن

والسنة كالأعمام والأخوال. وفي اختيار صيغة التهي عن إبداء الزينة ثم استثناء المحارم ما يفيد أن الأصل هو ستر الزينة إلا مع من تأمن المرأة غوايتهم بحكم العشرة والقربة منها، وهؤلاء ليسوا على مرتبة سواء في قرهم واتصالهم بالمرأة، ومن ثم يختلف تحديد ما هو عورة في المرأة بالنسبة إليهم، ولذا بدأ الله تعالى بالأزواج، إذ أن هؤلاء قد استحلوا فروج نسائهم بكلمة الله، فالمرأة لا تستر شيئاً من بدنها على زوجها إلا ما تقتضيه الحشمة والحياء خارج بيت الزوجية، وأما في خلوتها فكل جزء من بدنها حلال له نظراً واستمتاعاً إلا ما نحت عنه الشريعة من الإتيان في الدبر أو الفم، لأن حديث عائشة رضي الله عنها: "ما رأيت منه ولا رأى مني"، يحمل على وجه الاستحباب لمن أراد أن يتخلق بأخلاق الرسول العالمة.

وأما الذين ذكرهم الله تعالى بعد الأزواج فهم ليسوا في رتبة الأزواج من النظر إلى زينة المرأة وهم أقاربها من الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان والأعمام والأخوال كما ثبت ذلك من السنة، فهؤلاء جميعاً لا يجوز لهم النظر إلى عورة المرأة مما هو خاص بحقوق الزوجية، أما الأجزاء الأخرى من البدن مما لا يثير فتنة، فلا حرج على المرأة أن تبدو أمامهم ولكن في هيئة من الاحتشام والحياء، لأن ذلك أحوط لدينها وعفتها - كما تقدم -

فكم من انزلاقات وقعت فيها بعض النساء، إذ ارتكبن الفاحشة مع بعض محارمهن لا عن إكراه بل عن طوعية واختيار، ولذلك أمر رسول الله أن يفرق في المضاجع لسبع بين الإخوة.

والأحوط للمرأة أن تحتجب عن قريب لم تثبت قرابته إليها بصفة أكيدة موثوق بها، سيما قرابة الرضاع، إذ أن الكثير لا يوثقونها بشهود عدول.

قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْاَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾

إضافة النساء بكيفية مطلقة إلى النساء المؤمنات، أشكل على كثير من العلماء فاختلفت آراؤهم في تحديد المقصود منهن على ثلاثة أقوال:

(أ) - أمّن كل النساء اللاتي مثل المؤمنات في الأنوثة لا فرق بين المسلمات والذمّيات والكافرات.

(ب) - أمّن المسلمات خاصّة، لأن الإضافة تفيد هذا التخصيص ولو شاء الله لقال: أو النساء، فيكون ذلك على عمومه.

(ج) - من العلماء من أوّل تأويلا حسنا فقال: المراد بمن النساء اللاتي يشبهن المؤمنات في الحصانة والعفاف، بينما تلك اللواتي تكون لهن صلة وثيقة بالمرأة المسلمة بالتجاور أو تبادل المنافع بخدمة ونحوها، فالعبرة عند هؤلاء ليس هو الاختلاف الدّيني، بل هو الاختلاف الخلقي والسلوكي.

وقد رجّح هذا القول كلّ من الإمام المودودي والشيخ بيوض رحمهما الله. ويؤيد رأيهما الواقع المعيش، فكم من نساء مسلمات ممن لا حياء لهن ولا دين أوقعن غيرهن في الفواحش بمختلف الأساليب، إذ جررن كثيرا من العفيفات الطاهرات إلى شباك الدجالين والمشعوذين، ونصبن لهن الأحاييل ليقعن في أحضان الفجّار والفسقة.

يقول الشيخ الإمام بيوض في تفسيره "في رحاب القرآن" لسورة النور يقول: "فما أحسن تفسير من فسّر الآية بالطّيّات العفيفات اللاتي يؤمن جانبهن، ولا يخاف منهن على المسلمات سوء بدخولهن عليهن ولو كن يهوديات أو نصرانيات، أما الفواسد فلا يدخلن على المسلمات ولو نسبن إلى الإسلام نسبة تقليدية جغرافية، وهذا تفسير مهمّ للآية يتمشى مع حرص الإسلام على طهارة المسلمة وحصانتها، ويتمشى مع الواقع،

وكثيرا ما تضطرّ المسلمة إلى معاملة غير المسلمات من النساء، وهو ما كان جاريا في مدينة الرسول ﷺ. وفي عصره حيث يوجد اليهود وما سمعنا أن نساء الرسول والمؤمنين أمرن بالحجاب عندما تدخل عليهن الكتائيات لبعض حاجاتهن، ولو كان ذلك مشروعا لزحرت به كتب السيرة التي لا تمل أدنى من ذلك".^(١)

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: هم العبيد والإماء في ظاهر الآية، غير أن العلماء اختلفوا في تحديد المقصود من الآية: أهنّ الإماء دون العبيد؟ وإذا شملت العبيد فهل بدون قيد؟ أم نخصّصها بغير أولى الإربة كما ورد في الآية اللاحقة؟. والمشكل غير مطروح اليوم لانتهاء الاسترقاق بفضل منهجية الإسلام في إلغائه بطرق مختلفة حكيمة.

أما الخدم من الخصيان الذين ما يزالون إلى اليوم في بعض الأسر الكبيرة فقد صرّحت بهم الآية بقوله تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، فكل رجل لا يكون محرما لها ولا في ملك يمينها يحرم على المرأة أن تظهر زينتها له إلا أن يكون

١- إبراهيم بيوض، في رحاب القرآن "تفسير سورة النور"، إعداد: الشيخ الناصر مرمروري: ص ٩٤.

تابعاً، أي في خدمة أو عمل، وليس له أربّ بالنساء لأي سبب من الأسباب، سواء كانت طبيعية كالعنة والبلاهة ونحوها من الأمراض، أو صناعية كالجلب والخصي سواء بحادث أو بقصد كما يفعل ذلك بعض الملوك والأمراء بخدّامهم. فلمدار هو أن تؤمن فتنهم وهم يقومون بمهمّاتهم وسط النساء، أما إذا ما بدا منهم أي ميل أو اشتها فيجب إبعادهم كما فعل رسول الله بالخنث "هيت" وهو أخو أم سلمة من أبيها حين أخذ يصف جارياً بنت غيلان التّقي وهي امرأة جميلة بدينة، وصفها بأسلوب العاشق الوهّان فقال له رسول الله: «لقد غلغلت النظر إليها يا عدوّ الله». ^(١) ثم أحلاه عن المدينة إلى الحمى، فبمجرّد وصفه لزينة المرأة فإنه لا يؤمن فتنه على الرّجال الآخرين.

ثم قال تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، فلفظ الطّفّل للجنس، أي الأطفال الذين لم تتّبه فيهم الغريزة الجنسية، ولا تحدّد ذلك ببلوغ الحلم، فقد تسيقظ فيهم الغريزة قبل ذلك فيجب أن يمنعوا احتياطاً من الفتنة. لأن التعبير:

١ - رواه البخاري من حديث أم سلمة، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم ٤٣٢٤.

﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي لم يطلعوا عليها لخلو بالهم من شهوة النساء، فلا تغريهم زيتتهن إذا انكشفت لهن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾: استتارة الشهوة لا تتم عن طريق النظر وحده، بل الحواس الأخرى من السمع والشم، بل حتى من التصور والخيال عند كثير من الناس يكون لها أقوى الأثر في تحريك رغباتهم وشهواتهم، ولذا هي الله المؤمنات العفيفات أن يتكلفن إسماع وسوسة حليهن، وهن يخطون في مشيهن ضرباً بالأرجل، كما ثبت من السنة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرجن من بيوتهن متعطرات، أو يجهرن بأصواتهن إلا بالقدر الضروري لقضاء شؤونهن غير مخضعات ولا متدللات بالقول، وكان الرسول يأمر النساء أن يأخذن جانب الطريق عند السعي في الطرقات، وكل هذه الإرشادات تدرج في الإجراءات الوقائية لصيانة المجتمع المسلم من التبذل والانحراف.

وما يتاب المؤمن من حالات الضعف الإنساني من خائفة الأعين وما تخفي الصدور من خواطر السوء والفحشاء عند غلبة النفس الأمارة بالسوء، فإن الله تعالى قد فتح لنا أبواب التوبة والمغفرة فقال جل من قائل: ﴿وَوُتِبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً إِلَيْهِ

الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٣١﴾، وهكذا شأن المؤمن الوفي في اتصاله
بربه وليأذه إليه كلما مسّه طائف من الشيطان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾
(الأعراف: ٢٠١).

(د) - إجراءات وقائية:

(أ) - نهي الرسول عن اختلاء الرجل بالمرأة، ولو كان من
أقربائها إلا أن يكون معها أحد من محارمها. فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ».^(١)

(ب) - يتحاشا الرجل مصافحة امرأة أجنبية قدر الإمكان إلا ما
يكون من الضرورة القصوى، فلا يصفح بشهوة.

(ج) - التهي الشديد عن سفر المرأة وحدها، أو مع رجل غير
ذي محرم، أما تحديد مدة ذلك السفر ففيه خلاف بين العلماء،
والمدار فيه لا يركز على المدة ولا على الوسيلة، بل على ما يعتبر
سفرا تتعرّض فيه المرأة للفتنة والمضايقة.

١ - رواه البخاري من حديث صفية، أبواب الاعتكاف، باب زيارة المرأة
زوجها في اعتكافه، رقم ٢٠٣٨.

(د) - والقشة التي قصمت ظهر البعير في هذا الزمن النكد الذي نعيشه هو قضية الاختلاط بين الرجال والنساء بلا ضابط شرعي ولا خلقي. وما زال الرسول يشدد على ذلك وينهى عنه حتى في بيوت الله، فكيف بغيرها من الأماكن حتى قالت عائشة عندما رأت ما عليه النساء في عهد بني أمية قالت: "لو أدرك رسول الله ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعه نساء بني إسرائيل". والله أعلم.

زواج الأحرار أو استعفافهم

(أ) - النص:

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَيْسَ تَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿أَنْكِحُوا﴾: أي زوّجوا، مزيد بالهمزة وبدونها، يكون بمعنى "تزوج" قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ

حَتَّىٰ يَوْمٍ ۖ وَقَالَ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَوْمِنَا﴾^(٢٢١). وماضيه: أنكح. ﴿الْأَيَّامِ﴾: مفردة آيم، يستوي فيه المذكر والمؤنث، أي الرجل لا زوجة له، والمرأة لا زوج لها، سواء أتزوج أحدهما من قبل أم لم يتزوج، وسواء أكانت المرأة بكرا أو ثيبا. قال رسول الله: «أنا وامرأة سفعاء الخدين، تأيمت على ولدها الصغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله كهاتين في الجنة».^(١) ﴿وَأَمَّا نَكُومٌ﴾: والإماء مفردة أمة: المرأة المملوكة. ﴿وَلَيْسَتَعْفِفٌ﴾: طلب أن يكون عفيفا. وقيل: إن زيادة السين والتاء هنا للمبالغة لا للطلب فيكون بمعنى عَفَّ يَعِفُّ. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾: الفضل أي زيادة العطاء.

ج- بين يدي النص:

الزوجية سنة كونية من تدبير الله وحكمته في مخلوقاته، والتعبير

١- رواه البخاري من حديث عوف بن مالك الأشجعي في الأدب المفرد: باب فضل المرأة إذا تصيرت على ولدها ولم تزوج، رقم ١٤١. ورواه أبو داود بلفظ قريب من حديثه أيضا: «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأوما يزيد (الراوي) بالوسطى والسبابة: امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا». كتاب الأدب، باب في فضل من عال يتيما، رقم ٥١٤٩.

القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩) يوحى بشمولية هذه السّنة الكونية لكل ما يصدق عليه لفظ: "شَيْءٌ" الذي جاء بصيغة التّنكير التي تفيد الاستغراق. وقد اكتشف العلم هذه الحقيقة حتى في المادة الجامدة في تكوين الذرة، بل حتى في الطّاقة الكهربائية والجاذبية المغناطيسية مما لم يتوصّل العلم بعد إلى معرفة كنههما، وهناك حقائق وأسرار في هذا المجال ما تزال غامضة أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

وفي الحياة البشرية جعل الله تعالى من آيات عظّمته وقدرته ومن مظاهر رحمته وفضله علينا أن خلق لنا من أنفسنا أزواجا نجد في كنفها السّكينة والطّمانينة، ونتكامل في تحمّل أعباء الحياة لضمان استمرارية التّوع البشري في عمارة هذه الأرض إلى ما يشاء الله. ولتوفير الانجذاب الطّبيعي بين الذّكر والأنثى جعل الله تعالى الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز إلحاحا وطلباً للإشباع، ووضع لها من الضّوابط الشرعية ما ينظمها ويوجّهها حتى لا تحيد عن المجرى الطّبيعي الذي يحفظ للإنسان كرامته ويميّزه عن سائر المخلوقات الأخرى التي سخّرها الله تعالى لخدمة ذلك الإنسان.

وصونا لسياج العفة في المجتمع المسلم من كل الآفات والانحرافات كما فصلته الآيات السابقة تحيي هذه الآيات للإرشاد إلى ما يضمن تلك العفة ويعين عليها فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

(د) - البيان والتفسير:

بعد أن حدّد الله المحارم الذين يجوز للمرأة أن تبدو أمامهم بزینتها، وهي المنبت الطبیعی للنسل البشري، يجب أن يستتبت وأن توفر له كل الإمكانيات التي تحقق له الإنماء والازدهار، أمر الله المؤمنين أن يزوّجوا أياماهم وحملهم مسؤولية ذلك.

وضمير الخطاب مع "من" التبعية يقصد به الجماعة المسلمة من الرجال والنساء الأحرار، لأن الآية خصّصت بالذكر العيّد والإماء، فلا يجب أن يكون عدم وجود المال عائقا لتحقيق ذلك، وقد اختلف العلماء في هذا الأمر، أهو للوجوب أم للتدب أم للإباحة؟، وكل له حجته ودليله من السنة.

يقول الإمام القرطبي في تفسيره: "اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال: فقال علماؤنا: يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت، ومن عدم صبره، ومن قوّته على

الصبر وزوال خشية العنت عنه، وإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا أو فيهما فالتكاح حتم، وإن لم يخش شيئاً وكانت الحال مطلقة فقال الشافعي: التكاح مباح، وقال مالك وأبو حنيفة: هو مستحب^(١).

وبالرجوع إلى بيان السنة المطهرة، وإلى التطبيق العملي لهذا الأمر في عهد رسول الله يكاد الإنسان يرجح الحتمية والوجوب، سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود التضامن والتكامل بين المسلمين، إما بطرق البر والإحسان بينهم، وإما عن طريق بيت مال المسلمين عند قيام الدولة الإسلامية، حتى أن الرسول ﷺ في إرشاده للشباب أن يتزوج قد وضع له البديل بالصوم عند عدم الاستطاعة فقال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٢).

ونحن اليوم نعيش واقعا مرّا في عزوف الشباب عن الزواج لا

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٣٩/١٢.

٢- رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه إليه ووجد مؤنة...، رقم ١٤٠٠.

بسبب الفقر كما ورد في الآية الكريمة، ولكن لأسباب أخرى دخيلة على المجتمع المسلم بحكم تأثره بالفلسفات المادية الملحدة، التي تريد لها إباحية تامة، وشيوعية لا تراعي حدود الشرف والدين. أضف إلى ذلك ضخامة التكاليف التي ابتدعها السفهاء لمؤونة الزواج، والتي هي محادة منهم لأوامر الله ورسوله في التيسير والتخفيف، إذ قال رسول الله ﷺ: «أبرك الزواج أيسره مؤونة»^(١).

وفي السنة العملية نجد رسول الله حريصا على امتثال هذا الأمر الإلهي بمساعدته لفقراء الصحابة على الزواج حتى زوج أحدهم بما معه من القرآن يحفظه زوجته مهرا لها عندما لم يجد ولو خائما من حديد. وكذلك فعل خلفاؤه من بعده.

ولم يقتصر الأمر الإلهي على طبقة الأحرار، بل اهتم بمن هم أدنى منهم من العبيد والإماء، شريطة أن يصلحوا لتحمل تلك

١- رواه أبو داود من حديث عقبة بن عامر، كتاب النكاح، باب فيمن تزوج ولم يسم صداقا حتى مات، رقم ٢١١٧، بلفظ: «خير النكاح أيسره»؛ ورواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة بلفظ: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة»، رقم ٦٥٦٥، (٢٥٤/٥).

المسؤولية حتى لا يعتنوا أسيادهم في تكاليف الزوجية، ويدل ذلك على مدى حرص الإسلام على رفع مستوى المجتمع المسلم وضمن الطهر والعفاف لكل طبقاته.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هو وعد صادق من المولى تبارك وتعالى بتوفير أسباب الرزق للمتزوج حتى لا يكون الفقر عائقا لكثير من الناس يجدون فيه مبررا لعزوفهم عن الزواج، فكم من بركات تنتج عن تزواج شخصين يتعاونان على متاعب الحياة زيادة على ما يقدر الله بينهما من أولاد، حتى أجازت الشريعة الاستدانة من أجل الإحصان، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة حق على الله أن يعينهم: التاكي يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغاзи في سبيل الله».^(١)

فأين هي المبررات الواهية التي يتمسك بها بعض الشباب اليوم، إذ نجدهم متقدمين في السن وهم في عزوف عن الزواج؟.

١- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والتاكي والمكاتب وعون الله إياهم، رقم ١٦٥٥. وقال: حديث حسن.

ولعلّ من توفيق الله في مجتمعاتنا الميزابية أن تنظم فيها الأعراس الجماعية التي تخفف من مؤونة التكاليف المادية وتبرم لأجل ذلك اتفاقيات عامة يلتزم بها كل المواطنين لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وذلك بتحديد سقف المهور وضبط التكاليف في العادات المتبعة في حفلات الأعراس بدءاً وختاماً.

﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: الحكم الشرعي يعالج كل الأحوال التي يكون عليها المجتمع، ففي حالة عدم الاستطاعة على الزواج والتزويج، إما عن عجز ذاتي أو عن فقدان الإعانة من المجتمع، فما هو الحل؟.

لا يكون الحل أبداً في الاستهتار بالقيم والوقوع في الفاحشة، بل المطلوب هو الاستعفاف -أي طلب العفة والطهر- لأن ذلك أمر ميسر لمن يسره الله عليه. ولتحقيق ذلك وسائل عدة:

أ)- منها غضّ البصر، وقد تقدّم ما لذلك من أثر في صون العفة والطهر.

ب)- كسر الشهوة بالصوم، لما بين البطن والفرج من علاقة وثيقة في حدة الشهوة وانكسارها، فقد نصح الرسول الشباب بذلك فقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة

فليتزوّج، فإنه أحسن لفرجه وأغضّ لبصره، ومن لم يستطع فليصم، فإن الصّوم له وجاء»^(١).

(ج) - الاشتغال بالأعمال المفيدة، بحيث لا يبقى لنفسه مجالاً للتشهي والغلبة، فيتقي بكلّ ذلك محفّرات الشّهوة ويكون متقياً لله. وفي هذه الحالة يفتح الله عليه أبواب رزقه ويغنيه من فضله مصداقاً لقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣). والله أعلم.

مكاتبة الأرقاء، وحكم الإكراه على البغاء

(أ) - النص:

وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَانُوا مُؤْمِرِينَ
إِنَّ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا
فَنَيْتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ
فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ
مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿الْكِتَابُ﴾: والمكاتبة مصدر كاتب، مفاعلة بين اثنين يكتب بينهما كاتب صكّ اتفاقية على أمر ما. والمكاتبة في المصطلح الشرعي: أن يكتب السيد عبده على مال يؤديه مقسطاً عليه لآجال يتفقان عليها، فإذا وفى بها فهو حرّ. ﴿مَالِ اللَّهِ﴾: أي التصدق عليهم إمّا بإعطائهم شيئاً مما في أيدي الأسياد، أو بإسقاط عنهم شيئاً من مال الكتابة المتفق عليه. ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾: الفتيات: الإماء المملوكات، وفي التعبير بالفتاة صون لكرامتهن، إذ نهي رسول الله أن يقال: عبدي وأمتي. لما في ذلك من تعظيم السيد، وهذا الوصف لا يتشرف به الإنسان إلا لمولاه، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٢). ﴿الْبَغَاءُ﴾: مصدر من باغت الجارية إذا تعاطت الزنى بالأجر واتخذته حرفة. الوصف منه "بغي" يجمع على بغايا، ولا يقال: بغت، لأن ذلك من البغي.

(ج) - بين يدي النص:

من الآفات الاجتماعية التي تأصلت في المجتمع الجاهلي البغاء والفجور، وهو يأخذ أشكالاً مختلفة حسب الوضع الاجتماعي

للمرأة من الحرية والاسترقاق، أو الحسب والنسب، فالحرائر من النساء المحظوظات كن يتعففن بدافع العرف والتقاليد لا بدافع الدين، أما اللاتي يعضن الفقر وليس لهن أسر تحميهن فإنهن يحترفن البغاء ولكن في صور من الأنكحة الفاسدة التي ألغاهها الإسلام وحرّمها، وأما الإماء فكان كثير من الأسياد يفرضون عليهن مبالغ من المال يدفعنه شهريا، فيكسبه عن طريق بيع أعراضهن، وهناك البغاء العلني في بيوت يسمونها "المواخير" تخصص لذلك وتشهر بتعليق الرايات الحمراء عليها.

وهذه الآفة استفحلت عندهم وانتشرت لوجود عدد كبير من الأرقاء رجالا ونساء، سواء منهم من وقعوا في أسر الحرب أو من اختطفوا وبيعوا في الأسواق. وكان هؤلاء العبيد يشكلون الدّعمة الكبرى في المجال الاقتصادي والاجتماعي لدى الجاهليين، فليس من السهل تغيير هذا الوضع إلا أن تتغير الدّهنيات، ثم يقدم للناس البديل الذي يعوضهم ما يفوتهم من المنافع ماديا أو معنويا.

وللإسلام منهجيته الحكيمة في علاج هذا الوضع، ففي مشكل الاسترقاق لم يستطع أن يمنع مصادره كلّها مرة واحدة، سيما أسارى الحرب الذين تخضع وضعيتهم إلى ما يتفق عليه المسلمون مع أعدائهم من الافتداء أو تبادل الأسرى، ولذلك فسح المجال

لهؤلاء لا شراء حرّيتهم بالمكاتبّة زيادة على تحريض المؤمنين على
تحرير عبيدهم إما تكفيرا لذنوبهم أو تقربا إلى الله تعالى فقال جلّ
من قائل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُ رَقَبَةً، أَوْ
إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقَرَّبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾
(البلد: ١١-١٦). ولشدة العلاقة بين آفة الزنا والرق، وعلى وعد الله
بالغنى لمن يتزوَّج ولا يتخذ الفقر عائقا لذلك تأتي أحكام الأمر
الإلهي بمكاتبّة العبيد.

(د) - البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي
ءَاتَاكُمْ﴾:

المكاتبّة في المصطلح الشرعي حسبما تدلّ عليه الآية الكريمة
هي رغبة العبد أو الأمة في كسب حرّيته، فيطلب من سيّده ذلك
ويتفق معه على مقدار من المال يدفعه له أقساطا في آجال معيّنة
تسجّل في وثيقة يلتزم الطرفان بتنفيذها، وقد يكون الثمن خدمة
معيّنة يقوم بها العبد لسيّده ويتفقان عليها كذلك مكاتبّة. والأمر
موجّه للسادة المالكين، فتعيّن عليهم الاستجابة لأمر الله بتبليّة

طلب العبد أو الأمة، ولذا ذهب بعض العلماء أن الأمر يقتضي الوجوب، ويرى آخرون أنه للاستحباب والتدب نظرا للقيّد المتصل بالأمر في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، وتقدير هذا الخير في العبد إنما يتوقف على رأي السيد وليس لذلك ضوابط معينة.

والتعبير بكلمة: ﴿خَيْرًا﴾ تفتح الباب لنظر العلماء في تحديد المقصود منها، فقال البعض: أنه المال والأداء، وقال آخرون: إنه الدين والأمانة والصّلاح. واللفظ يحتمل كل هذه المعاني، غير أن ملاك الخير كله في تقييم السيد المسلم الذي يملك إعطاء الحرية لعبده، أن يقدر فيه التقوى والصّلاح والأمانة، بحيث يثق بالوفاء لما عاهده عليه وذلك في حقه الشّخصي، ثم يغلب على ظنه أن يغدو مواطنا صالحا يعتزّ به المجتمع المسلم، وعضوا فعّالا معتمدا على نفسه، فانظر إلى حكمة الله في إيراد هذا الشرط.

فكم من عبد رسخت فيه معاني العبودية بحيث أصبح مسلوب الاختيار، لا يقوى على تحمّل مسؤوليته إن حرّره سيّده، فيبقى للضّياح إلى ما هو شرّ من العبودية، والواقع التاريخي يثبت ذلك في أمريكا، عندما صدر قانون إلغاء الرّق. فإن الكثير من الأرقاء الرّنّوج أثروا البقاء في كفالة أسيادهم. وفي التاريخ القديم ما يؤكّد

ذلك في أجيال بني إسرائيل التي حرّرها سيدنا موسى من طغيان فرعون، فلم تستطع الفكاك من الخوف المستكنّ في دمائهم حتى كتب الله عليهم التّيه لأربعين سنة في صحراء "سيناء".

قال تعالى: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾، الأمر في ظاهره للسّادة المكاتبين، وذلك بأن يعطوهم شيئا من فضول أموالهم صدقة أو زكاة لمساعدتهم على تسديد ما عليهم، أو أنّهم يضعون عنهم بعض الأقساط المتفق عليها في المعاهدة. ويرى كثير من العلماء أن الأمر لا يخصّ السّادة، بل هو عامّ لجميع المسلمين، يساعدون هؤلاء العبيد لتحرير رقابهم. على أن الأمر في الآية للتّدب لا للوجوب، وهذا القول أنسب لمبدأ الإسلام في تضامن المسلمين وتعاونهم على البرّ والتقوى.

وفي إضافة المال إلى الله إحياء لطيف لشكر المنعم، لأن الله تعالى هو الباسط الرّازق، وهو الميسّر للأسباب، وقد ذكر المحدثون بعد نزول هذه الآية الكريمة أن كثيرا من الصّحابة ممن ليس لهم فضل مال بادروا إلى مكاتبه عبيدهم، وأما الأغنياء منهم كأبي بكر الصّديق وعبد الرّحمن بن عوف فقد حرّروا آلافا من العبيد لوجه الله تعالى، ومما أثبتوه أن النبي ﷺ قد أعتق ٦٣ رقبة وأعتقت زوجته عائشة ٦٧.

وبهذه الطريقة الحكيمة وجد العبيد حريتهم في دين الله، حتى صار الكثير منهم في الصفّ الأمامي من خيرة الأصحاب كبلال بن رباح، وقد ندّد رسول الله بكلّ متعاضم جبار يستذلّ رقاب الناس فقال: «قال الله تعالى: ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره»^(١). وهذا عمر الفاروق يرسل صيحته المدوّية في العالمين: "متى استعبدتم الناس وقد ولدكم أمهاتهم أحراراً".

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

وهذا إرشاد إلهي آخر يخفف من غنت الأرقاء ويرفع مستواهم إلى الكرامة الإنسانية تصوناً وطهراً فالمقصود بالفتيات هو الإماء المسترقّات، وهو تعبير قرآني لطيف ينضح بالرحمة والشفقة ويدلّ على تكريم ذلك النوع من الناس ممن عثر بهم الحظ فوقعوا في

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب البيوع، باب إثم من باع

الأسر أو أصابهم من عنت الدهر ما يسلب حريتهم. وقد جرت العادة عند الجاهليين أن يستخروا إمامهم لذلك النوع من الكسب الخبيث المتمثل في احتراف الدعارة وتسخير أجسادهن لكل لاس.

وتذكر الروايات في أسباب النزول أن عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - كان قد أكره جارية له على البغاء وهي تريد الطهر والعفاف فهربت منه إلى أبي بكر، فأخبر الرسول بأمرها فأمره أن يعسكها عنده ولا يردّها إلى مولاها، مما جعل ابن أبي يستشيط غضبا ويطعن في النبي وصاحبه حتى نزلت هذه الآية فبكته وأمت دعائته. إذ نهي الله تعالى عن تلك الفعلة الشنعاء من إكراه الإمام على البغاء، وأن لا فرق بينهما وبين الحرائر اللاتي يعتبرن الزنا فاحشة لا تليق بكرامتهن.

وليس معنى الآية أنهن إن لم يردن تعففا فيجوز إكراههن، وإنما المعنى أن يكون القيد هنا: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس شرطا بل هو قيد لبيان الواقع، إذ التّهي عن الإكراه سواء أردن التّعفف أو لا. وقيد الشرط هنا لا مفهوم له، ثم إن الله تعالى رتب على ذلك فتح باب التوبة والعفو عما بدر في الماضي إذ الإسلام جبّ لما قبله.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

لقد تكرر هذا الإخبار الإلهي في بيان فضله ورحمته بخلقه بإنزال أحكام شريعته مفصلة واضحة لتحقيق لهم السعادة الدنيوية في محيط الأسرة وعش الزوجية. تكرر ذلك للدلالة على حساسية الموضوع وأهميته عند الله، وقد تضمن نوعاً من التوبيخ والتهديد إن ترك الناس تلك الأحكام واتبعوا في ذلك أهواءهم أو أهواء رؤسائهم وكبرائهم بغير ما أنزل الله، إذ ذكرنا الله بسوء مصيرهم وعاقبة أمرهم، فمن الواجب على عباده المتقين أن يعوا ويتدبروا ما أنزل الله عليهم من تلك الأحكام ويعملوا بمقتضاها، والمراد بها كل ما تقدم من أول السورة حتى هذه الآية الكريمة، والله أعلم.

النور من أسماء الله الحسنى تعرف آثار الله فينا

(أ) - النص:

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ

عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: النور: الضياء الذي تظهر به الأشياء فهو ظاهر بنفسه مُظْهِرٌ لغيره. وإطلاق السَّمَاوَاتِ والأرض في تعبير القرآن يعني الكون كله في سفليّه وعلويّه. ﴿كَمِشْكَاة﴾: المشكاة: هي فرجة في حائط غير نافذة تجمع ضوء المصباح. ﴿دُرِّيٌّ﴾: أي هو كالدرّ في شدة لمعانه. ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: أي أنها ملء ضوء الشّمس والهواء لا تحجب عنه في صباح أو مساء كالتي تكون في الصّحراء أو على رؤوس الجبال. وقد استمدّ أبو تمام المثل لمدوحه حين عاب عليه جلاّس الخليفة، إذ قالوا: الخليفة هو أعظم من المثل الذي جئت به فقال لتوّه:

لا تنكروا ضربي له مثلاً شرودا في الندى والبأس مثلاً
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره من المشكاة والنبراس

(ج) - بين يدي النص:

لقد رأى الإمام ابن عاشور خلافاً لجمهور المفسّرين، رأى أن

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملة معترضة بين الآية السابقة: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ﴾ والآية اللاحقة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾، فقال معللاً ذلك: "ومناسبة موقع جملة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ بعد جملة: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أن آيات القرآن نورا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤). وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥). فكان قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلمة جامعة لمعان جمّة تتبع معاني النور في إطلاقه في الكلام.

وموقع الجملة عجيب من عدة جهات، وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان^(١).

قلت: وهذا الذي ذكره من وجه المناسبة بين ما سبق من الأحكام وانتقال إلى غرض آخر، يستقيم كذلك مع ما ذهب إليه كثير من المفسرين، من أن الآية هي على الاستئناف الابتدائي، وعلى أن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ هي بيان لجملة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وأن الضمير في قوله: ﴿مَثَلُ

نُورِهِ ﴿عائد إلى لفظ الجلالة، فقد أشاد الله تعالى بآياته المترلة في هذه السورة عدة مرّات ووصفها بأنّها يّينات ومبيّينات ترسم طريق النّور للمسلمين وتخرجهم من ظلمات الجاهلية، لأنّ النّور الذي يهدي إلى الحق هو نور البصيرة، وهو يتجسّد في رسول الله وصحبه من المتقين الأوفياء.

وأما المنافقون الذين يتظاهرون بأنهم مع المؤمنين في مجال ذلك النّور فهم في الحقيقة ما يزالون في الظّلمات، كما ضرب الله بهم مثلاً في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧). فهم والكفار سواء في عمى بصيرتهم وسوء قلوبهم، فلا يطمعن أحد منهم أن ينال رحمة الله ومغفرته بظواهرهم الكاذبة.

قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢). وكما تستمد الأرض نور الحياة لمادتها من نور الشّمس، فكذلك تشرق بنور ربّها بواسطة كتبه ورسله في ما يصلح أمرها ويضمن لها سعادتها واستقرارها.

(د) - البيان والتفسير:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: النور اسم من أسماء الله الحسنى، وليس الإخبار به عن اسم الجلالة إلا بالمعنى المجازي لكلمة "النور" الذي يدلّ على المعنى المطلق الأساسي لما يجب أن نصف به الخالق تبارك وتعالى مثل بقية الصفات من السمع والبصر والعلم والقدرة، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم، نصفه وندعوه بما كما أثنى بها هو على نفسه، دونما محاولة منا للتجسيد أو التمثيل بالمدلول المادي المعهود لدينا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فكما أن النور المادي هو سبب لظهور الأشياء أمام أعيننا، فكذا ظهور هذا الكون الفسيح الأرجاء، ما ظهر لنا منه وما اختفى، إنما كان بنور الله وقدرته مما لا يمكن أن ندرك كنهه بعقولنا الضيقة، إلا بما يعلمنا هو عن طريق وحيه المبثّر. فهو الظاهر الجلي من خلال آياته في الآفاق، وهو الباطن في كنه ذاته العلية، ليس كمثله شيء على الإطلاق.

وقد نقل الإمام ابن عاشور عن الإمام الغزالي كلاماً مفيداً في هذا المعنى فقال: "النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، أي الذي

تنكشف به الأشياء، وتنكشف له وتنكشف منه، وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور، وجعل اسمه تعالى دالاً على التّزّه عن العدم، وعلى إخراج الأشياء كلها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود، قال إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع^(١).

قلت: ولعلّ في دعاء الرسول ما يؤيد هذا المعنى عند رجوعه من الطائف إذ قال فيه: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة». وقوله في دعاء التهجّد: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت ربّ السماوات والأرض ومن فيهن»^(٢).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨/٢٣٢.

٢- رواه البخاري من حديث ابن عباس، أبواب التهجد، باب التهجد بالليل، رقم ١١٢٠.

وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾

وضرب الله المثل لتوهج ذلك النور بما كان الناس يعرفونه إلى وقت التثريل من استعمال تلك الوسائل البسيطة في تركيب يحصر أشعة النور ويمنع عنها الريح فلا تضطرب ولا تنطفئ، فجعل من المشكاة وسيلة لحصر الأشعة، وجعل من المصباح المشتعل بفتيل الزيت الصافي مصدرا لذلك النور، وشبه الزجاجاة التي يكون فيها المصباح بالكوكب الدري في لمعانه، وللدلالة على توهج النور وصفائه أضفى على زيت المصباح أوصافا تجعله ممتازا في نوعيته بكونه من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية فهي ملء أشعة الشمس في بطحاء واسعة لا يظللها شجر ولا حجر، فإذا كانت شجرة الزيتون في مثل ذلك الموقع فإن زيتها يكون أصفى الزيوت حتى لكان النور يكاد ينبثق منها ولو لم تصبها نار، وبذلك يكون قد توفرت لذلك المصباح كل وسائل التوهج والإنارة: ﴿ثُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

وقد أحسن الإمام المودودي في تحليل هذا التشبيه وبيان ما ينطوي من دلالات إذ قال ما نصّه: "فالله سبحانه وتعالى قد شبه نفسه في هذا المثال بالمصباح وشبه الكون بالمشكاة، وأراد بالزجاجاة ذلك السّر الذي قد وارى فيه الحق تعالى نفسه عن نظر

الخلايق، كأن ليس هذا السّتر في حقيقة الأمر بستر الخفاء، وإنما هو ستر شدة الظهور، فإن كانت أبصار الخلايق لا تدركه، فما السّبب في ذلك أن الظلمة حائلة بينه وبينها، بل السّبب الحقيقي في ذلك أن السّتر الذي بينهما شفاف رائق، قد عجزت الأبصار وذلت القوى المحدودة عن إدراك النور الذي يصل إليها بعد عبوره، وذلك لشدة لمعان هذا النور وشموله وإحاطته، إن هذه الأبصار الضّعيفة لا تقدر إلّا أن تدرك الأنوار المحدودة والتي توجد في مقابلها الظلمات، فهي لا تظهر إلّا في مقابلة أضدادها، أما النور المطلق الذي لا ضدّ له ولا زوال وهو محيط بالكون من كل جهة وبصفة واحدة، فإن الأبصار عاجزة عن إدراكه البتة". (١)

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أي أن هذا النور يمنحه الله لمن يشاء من عباده بالتوفيق والهداية، وهو في معنى الشرح للصدور في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الزمر: ٢٢). بينما القلوب القاسية قد أحاط بها الرّين فهي محجوبة عن ذلك

النور: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٢). وقد ضرب الله هذا المثل لنوره حتى يقرب للأفهام تلك الحقائق المجردة عليهم ينتفعون بها، والله وحده يعلم المهتدي إلى ذلك النور من غيره. وقد علمنا كيف ندعوه تعالى لنقتبس من أنواره فنقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورًا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحریم: ٨)، والله أعلم.

من صفات المهتدين بنور الله

أ- النص:

فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيُخْرِجَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَآعِيشًا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

ب- التحقيق اللغوي:

﴿الْغُدُوِّ﴾: وقت البكور أو عند خروج الناس إلى أعمالهم.
 ﴿الْآصَالِ﴾: مفردة أصيل، آخر النهار، ويقال: الغدو والرواح.
 عبر العرب به عن خروج الرعاة بأغنمهم في الصباح ورجوعهم

بها في المساء، ثم استعمل لكل خروج في ذنك الوقتين. ﴿تَجَارَةً
وَلَا يَبِيعُ﴾: فالتجارة: جلب السلع وعرضها للبيع، أما البيع فيشمل
كل ما يبيعه الإنسان ولو لم يكن تاجرا. ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ﴾: كناية عن خوفها واضطرابها لهول يوم القيامة. ﴿بَغَيْرِ
حِسَابٍ﴾: بمعنى الكثرة والوفرة، وإلا فكل شيء عند الله مقدر
محسوب. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

ج- البيان والتفسير:

تعددت آراء المفسرين في تحديد متعلق الجار والمجرور: ﴿فِي
بُيُوتٍ﴾ ويرجح الإمام ابن عاشور أنه ظرف مستقر هو حال من
قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ﴾. يقول: يشير إلى أن "نور" في
قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ مراد منه القرآن، فيكون هذا الحال تجريدا
للاستعارة التمثيلية بذكر ما يناسب الهيئة المشبهة أعني هيئة تلقى
القرآن وقراءته وتدبره بين المسلمين، مما أشار إليه النبي ﷺ: «ما
اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه
بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله

فيمَن عنده»^{(١)(٢)}.

قلت: إن هذا الرِّبط بين هذه الآية وما قبلها أولى وأنسب لتسلسل المعاني وتدايعها كما تقتضيها بلاغة القرآن، فبعد التَّمثيل الرائع لنور الله المتمثل في هدي القرآن وشخصية الرسول مما يجعل المؤمنين يتشوقون إلى معرفة المصادر التي يلتمسون فيها ذلك التَّور، وكيف يتزوّدون بقبسات منه تنير مسالك حياتهم، فكان هذا الإرشاد الإلهي في عمارة بيوت الله ورفعها، سواء بتشديد أبنيتها وإكمال مرافقها أو بتزيينها وتطهيرها من الأنجاس والأرجاس، وكذا تعميرها بالصَّلَاة والذِّكر والعبادة، ومراعاة الآداب الشرعية الثابتة من السُّنة الصَّحيحة في كلِّ ما يضمن حرمتها وقدسيتها.

فهي المشكاة التي يتألق فيها نور الله، فتوهج مصابيح القلوب وهي تتردّد عليها بالغلوّ والآصال، لا يثنيها عن ذلك أي شغل دنيويٍّ مهما كان مربحاً أو مغنياً مثل التجارة والبيع، أو هي

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٤٧/١٨.

ترابط في رحابها اعتكافا أو انتظارا للصلاة بعد الصلاة كما ورد في الأثر من أن المساجد التي يذكر فيها الله يراها أهل السمَاء مضيئة كالنجوم، وهكذا تكمل الصورة التمثيلية بين الآيتين الكريميتين على أن المقصود بكلمة "البيوت" -والله أعلم- هو المساجد، وإلا فقد أورد المفسرون احتمالات أخرى غير مستبعدة في معنى "البيوت" فقالوا:

(أ) - المراد بها صوامع الرهبان وأديرتهم، إذ كانوا يرفعون أبنيتها ويختارون لها رؤوس الجبال طلبا للهدوء والتفرغ للعبادة، ويتخذون لها كوى للمصاييح تعرفها القوافل في أسفارها إلى أرض الشام.

(ب) - إنها بيوت المؤمنين بصفة عامّة وأن المراد برفعها الاجتهاد في أن تكون محضنا طيبا للأسرة بالطهر والصّلاح والتّقوى، ورجّح الإمام المودودي هذا المعنى في تفسيره القيم لسورة التّور فقال ما نصّه: "إن شريعة الله لا تحدّ العبادة في المساجد كما تحدّها الديانات التي فيها الكهانة ولا يمكن أن تقام فيها طقوس العبادة بدون فرد من طبقة الكهنة والقسيسين، أما الإسلام فكل بيت فيه معبد كالمسجد، وكل فرد من أفراد المسلمين قسيس لنفسه فلما كانت معظم آيات السّورة تتعلق بتعليم المؤمنين

وهدايتهم إلى رفع حياتهم الأسروية، فإن التفسير الثاني أنسب وأليق بموضوع السورة عندنا من التفسير الأول أي المساجد".^(١)

قلت: لعل الذي يعضد مثل هذا التفسير أن التحريض الوارد في القرآن لعمارة بيوت الله، استعملت فيه كلمة المساجد لا البيوت مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الحج: ١٨). وقوله في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ - آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (١٨). وقوله في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ (١١٤).

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾: أي الذي يحفزهم لعمارة بيوت الله رسوخ عقيدتهم وكمال إيمانهم بأنهم راجعون يوما إلى الله، فهم يذكرون الموت ويشفقون على أنفسهم من أهوال يوم القيامة عند الفزع الأكبر، ولذا فهم يتزودون بالعمل الصالح ويغرفون من منابع ذلك التور في بيوت الله ليكون شفيعا لهم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ

الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿١٢﴾ (الحديد: ١٢).

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبِزَيْدِهِمْ مِن فَضْلِهِ﴾: المؤمن الوفي مهما اجتهد في طاعته فهو يتأرجح بين الخوف والرجاء، رجاء مغفرة الله لذنوبه، والخوف من سخطه وغضبه.

ولما كان الخوف من عذاب الله في أهوال القيامة هو الدافع لحسن طاعتهم وإقبالهم على الله كان جزاؤهم مضاعفا عند الله لحسنات أعمالهم، ولم تذكر الآية الجزاء على السيئات وفق ما يقتضيه العدل الإلهي في مدلول الجزاء، لأن هؤلاء الأبرار قد رجحت كفة حسناتهم بمضاعفة الله إياها والزيادة لهم من فضله كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٢٦). وفي الإعراض عن ذكر سيئاتهم إكرام وأي إكرام حتى لكأنهم في مرتبة المعصومين من الأنبياء والصديقين.

وفي ترتيب الجزاء على العمل ما يؤكد أن العمل هو مناط الجزاء عند الله، أما الأقوال الجوفاء والأمانى الكاذبة فلا قيمة لها عند الله، والإيمان كما جاء في الأثر: «ما وقر في القلب وصدقه

العمل»^(١) والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُحْزَبْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣).

وهؤلاء الأبرار هم واقعون في مشيئة الله بما أعطاهم من فضله، كما يدلّ عليه التذييل في آخر الآية: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، والله أعلم.

حال الكافرين في خسارة أعمالهم

أ- النص:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَيْهِ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَمَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرِيهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾

١- رواه ابن أبي شيبة في المصنف من قول الحسن، رقم ٣٥٢١١، بلفظ: "إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل".

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿كَسْرَابٌ﴾: السراب أو الآل ما يراه المسافر كالماء من بعيد في أرض مستوية عند اشتداد الحر حتى لكانه بركة ماء، وهو يلتصق بالأرض، بينما الآل يرتفع عنها في وقت الضحى. قال الشاعر:

فلما كفنا الحرب كانت عهدهم

كلمح سراب بال فلا متألق

﴿بَقِيعَةٌ﴾: ما أنبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت، قيل: هي جمع قاع كحبيرة جمع حبار، وقيل: هو مفرد، غلب لفظ الجمع فيه، ويقال في الجمع: أقوع وأقواع وقيعان. ﴿الظَّمَانُ﴾: العطشان، يجمع على ظماء وعطاش، وقد تخفف همزته فيقال: الظَّمَان. ﴿فَوْفَاهُ حِسَابُهُ﴾: أخذه كاملا لا عفو فيه. ﴿لُجِّيٌّ﴾: نسبة إلى اللجة - بضم اللام - وهي معظم الماء وبالفتحة: اللجة، الصَّخْبُ في أصوات الناس. ويقال: ألتج الأمر إذا عظم واختلط، والجمع لُجج. ﴿يُعْشَاهُ مَوْجٌ﴾: أي يعلوه ويتراكم الموج بعضه على بعض. ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾: فسرها اللغويون على أوجه منها: لم يرها ولم يكد، لم يرها تماما، لم يطمع أن يراها، لم يرها إلا بعد جهد، وأرجح الأقوال: لم يقارب رؤيتها.

(ج) - بين يدي النص:

ذكرت بعض الروايات أسماء بعض من العرب كانوا يترهبون في الجاهلية ويلبسون الصوف زهداً وهم يلتمسون الدين، فلما جاء الإسلام كفروا به فترلت في شأنهم هذه الآية.

قلت: إن مظهر البر والإحسان عند كثير من الناس قديماً وحديثاً، وحسن معاملتهم لمن يجب الإحسان إليه، قد يؤهم من يراهم أنهم من خيرة خلق الله وأنهم سوف يكرمهم الله يوم القيامة لأنهم بأعمالهم تلك لا يتناقضون مع دين الله في كثير من إرشاداته وأحكامه، ولعلنا في هذا العصر - نحن المسلمين - أشد اغتراراً بما نرى عليه الأوروبيين من الانضباط والجدية في العمل وسلوكهم في المعاملات الاقتصادية، وحتى ما يتظاهرون به من المواساة والإحسان بمختلف مؤسساتهم الخيرية بحكم تفوقهم الحضاري علينا، فإذا قاربنا ذلك بوضعيتنا المتخلفة وواقعنا المرير من التناقضات التي نعيشها - نحن المسلمين - فإن الكثير منا يقع في ذلك الخطأ الفادح، حين يقول: إن هؤلاء هم أحق بتأييد الله ونصره، وأن أتباع المسيح هم أقوم ديناً وأشرف إنسانية منا، فلا مطعم لنا أن نصل إلى مستواهم في يوم ما.

إن كثيرا من جمهورنا الساذج يروج لهذه الأفكار ظنا منه أن واقع المسلمين هو الصورة الحقيقية للإسلام، وبالتالي هو يحكم عليه بأن عهده قد ولى، وأن نظامه لم يعد صالحا للتقدم الحضاري الذي نصبو إليه، فلنأخذ من ديننا الجانب العقائدي والانتمائي مع شيء من طقوس العبادات، وأما الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فلتتبع فيه أنظمة القوم لعلنا نبلغ شأوهم في يوم ما.

وفي مثل هذه الأمثال والتشابه تذكرة لأولي الألباب، وإجابة مقنعة لمن يميز بين الخطأ والصواب.

(د) - البيان والتفسير:

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾:

بعد أن ضرب الله المثل لنوره وكيف تستنير به قلوب المؤمنين الصادقين وتنفع بمداية الله وفق مشيئة الله وعلمه انتقل النص إلى مقابلتهم بحال الكفار والمنافقين أولئك الذين حتم الله على قلوبهم حين تنكروا لرسول الله الذي بعثه الله نورا وأنزل عليه نورا، وليس إلا القلوب مستودعا لهذا النور، وسواء أقرت الألسن أم

أنكرت، فإن العاقبة سواء في بقائهم للظلمات.

والأعمال بالنسبة إلينا - نحن البشر - هي أساس التقويم ومن خلالها تصدر أحكامنا، ولكن الله العليم بذات الصدور لا ينظر إلى صورنا وأعمالنا ولكن ينظر إلى ما في قلوبنا، كما قال رسول الله وكما صرّحت به الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٢٩). وفي قوله في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْشَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٢٨٤).

ودفعا لكلّ وهم في قيمة أعمال الذين كفروا عند الله، ضرب الله هذين المثالين وساق هاتين الهيئتين التمثيليتين لشيء معنوي بأشياء محسوسة هي غاية في الخيبة والتيه والضلال، وأية خيبة هي أدهى وأمرّ من خيبة الظمآن الملهف إلى الماء، يخدعه السراب فيتجه إليه متعبا مكدودا، ثم هو لا يجد شيئا، وما أدقّ التعبير بهذه التكررة في سياق التفي لتصوير منتهى الخيبة والخيسارة في عدم الحصول على الطلب حتى من أدنى الأجزاء الحقيرة منه، وكذلك سعي الكافرين في ظواهر أعمالهم وإن حسبوها مكاسب ضخمة في حياتهم الدّنيا وحسبها كذلك الذين يغترون بهم، فسوف لا يجدون عند انكشاف الغطاء بموقعهم إلا الوهم والخيال، كما يجد

الظَّمان في جريه وراء السَّراب والآمال.

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فليت الخيبة كانت بعدم الحصول على المطلوب من وجود الماء، بل وجد هناك من كان ناكرا لوجوده غافلا عن سخطه وعذابه، وجد العزيز الجبار في مفاجأة لم يكن ينتظرها، وعندئذ ينال جزاءه الأوفى على ما قدّمه من أعمال كان يظنها خيرا، ولكنها عند الله لا تساوي شيئا لأنها عارية عن الإيمان بالله ورسالته حتى صارت هباء منثورا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣).

وأي تصوير للخيبة والأسى أبلغ من هذه الوضعية التي ينتهي فيها الإنسان المتلهف الظَّمان إلى مورد لا وجود له إلا في خياله المريض، ثم هو يقع في يد من كان يترصده لينال منه جزاءه.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾.

عطف المثال الثاني بـ "أو" التي تدلّ على التخيير، والمشبه في المثالين واحد، أي الذين كفروا، فهم في ظلمات مطبقة هي غاية

في كثافة الظلمة بحيث لا تمكن صاحبها حتى من الاستشعار بذاته، ولو أجهد نفسه في ذلك: ﴿وَإِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾.

هذه الصورة التمثيلية الرائعة من أروع ما جاء في القرآن لوصف أهوال البحر، مما لا يمكن أن يتصوره حق التصور إلا الذين عايشوا البحر وأبلوا أخطاره من ربابة السفن قديما وحديثا، فهو الخلق العظيم الذي لم يستطع الإنسان أن يقهره بالرغم مما يخترعه من وسائل الإنقاذ والتجدة، وما يعتمد عليه من تقنيات تساعده في دقة الفن الملاحى وترصد الأحوال الجوية.

وما أروع هذه المقابلة بين مجالات الأنوار المتألقة في القلوب المؤمنة، وإطباق الظلمات المتراكمة في قلوب الكفار والمنافقين، والتي قال عنها أبي بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير.

قلت: أجمع من ذلك أن يكون قلبه في ظلمه حالكة، لا ينفذ إليه أي بضيض من نور الله الذي لا يلمسه إلا عن طريق الإيمان الصحيح يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ

نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿الزمر: ٢٢﴾. ويقول في سورة التغابن: ﴿وَمَن يُّؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١).

فنور الهداية لا يتأتى بأي علم إلا ما يكون عن طريق وحي الله، متى استشرف إليه العبد المخلص الوفي وطلب المهدي من منابعه الأصلية واتجهت نيته إلى التماس رضى الله، وأما ما وراء ذلك من معارف البشر مهما تنوعت فروعها فهي تقف دون باب الغيب عاجزة لا تغني فتيلًا، يقول في شأنها جلّ وعلا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

ومع ذلك العجز المميت فإن هذا الإنسان قد يفتن بعلمه إلى حدّ التآله، ويتناول معرفته إلى حدّ السّخرية والإنكار لعلوم الدّين تمامًا، وفي مثل هؤلاء يقول ربّ العزة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (غافر: ٨٣). ويقول في آخر هذين المثليين: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، والله أعلم.

مما يرشد إلى نور الله النظر في ملكوته

(أ) - النص:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَقَّتْ كُلُّ قُدِّ
عِلْمِ صَلَاتِهِ وَسُبُوحِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ الْمُصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ
رُكُومًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ
فَيُصِيبُ بِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ، يَذْهَبُ
بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُغَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿صَافَاتٍ﴾: أي الطير باسطات أجنحتها في الهواء.

﴿يُزْجِي﴾: إزجاء السحاب يسوقه، يقال: البقرة تزجي ولدها

أي تسوقه. وزجاً يزجو زجاء الخراج إذا تيسرت جبايته. ﴿يُؤَلِّفُ﴾

يَبْنِيهِ: أي يجمعه حتى يصير كثيفاً. ﴿رُكَّامًا﴾: مشتق من الرِّكْم، أي الجمع والضم، أي بمعنى مَرَكُومٍ مجتمع بعضه فوق بعض، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (الطور: ٤٤). ﴿الْوَدَقَ﴾: يحتمل معنيين: البرق أو المطر، يقال: وَدَقَتِ السَّحَابَةُ أي أمطرت. ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾: خلال جمع خلل، وهي الفُرَج ومخارج القطر منه، فالسَّحَاب شبيه بالغربال لتوزيع قطرات الماء حتى لا تفسد ما في الأرض. ﴿يَبْرَدُ﴾: الماء يتجمد من شدة البرد. ﴿سَنَا بَرَقَهُ﴾: السَّنا - بالقصر - ضوء البرق وبريق النَّار، والسَّناء - بالمد - الشَّرَف والرفعة، جمع ذلك ابن زيدون في هذا البيت:

يا أخوا البدر سناءً وسناً رحمَ الله زمانا أطلعك
﴿دَابَّةٌ﴾: ما دبَّ على وجه الأرض من مختلف الحيوانات.

(ج) - بين يدي النص:

بعد المقابلة الشَّيقة بين أنوار الله السَّاطعة في قلوب المؤمنين والظُّلُمات المطبقة على الكافرين والمنافقين، وبعد الإرشاد إلى الدلائل الروحية بذكر الله في بيوت الله، أتبع الله ذلك في هذا المقطع الكريم بلفت أنظارنا إلى دلائل قدرته وعظمته في ما خلق

في أرجاء الكون من العالم المشاهد وغير المشاهد، بدءاً بما لا تدركه عقولنا وحواسنا من الأجرام العلوية والسفلية، وما لا نعيه من منطق الكائنات في تساييحها بتناسق وتناغم مع روح الوجود كله ثم إلى ما بين السماوات والأرض من مجال حيوي للطيور، ومستودع أمين لعنصري الحياة من الماء والهواء.

والقرآن في أسلوبه الحكيم للوعظ والإرشاد لا يتناول الظواهر والسنن الكونية بالتحليل العلمي المفصل، فليس ذلك من مهمته الإرشادية والتهدئية، بل يدرجها خلال آيات الأحكام أو غيرها من قصص الأنبياء أو تصوير مشاهد القيامة... إلخ، ويسوقها أدلة مشاهدة ثابتة ترينا عظمة الخالق، وترسخ في قلوبنا أصول الإيمان به وفق مبادئ العقيدة الإسلامية الصحيحة. وقد أرشدنا رسول الله إلى ذلك حين قال: «تفكروا في ما خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا».^(١)

١- رواه الربيع بن حبيب في المسند، كتاب العلم، باب النهي عن الفكرة في الله عز وجل، رقم ٨٢٧، (٣١١/١) بلفظ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق»، وزاد فيه الحسن: إن الله لا تناله الفكرة. و رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر النبي ﷺ

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥).

نعم، إن الإنسان وحده في هذا الكون يضلّ ويطفئ، ثم هو بعد ذلك يندّ عن بقية المخلوقات كفرا وجحودا لنعمة خالقه، وهو إذ سخر له ما في السماوات وما في الأرض وميزه بالحرية والفكر لا يكاد يطيل النظر في ما حواليه تدبرا وإمعانا، لأن تعوّده على مشاهد محيطه الضيق وإلفه لنظامه المستقرّ يجعله على مثل تلك الغفلة والسّهو، وإن تمادى على ذلك مستغنيا ببعض مكاسبه فإنه يفضي به ذلك إلى الجحود والنكران، وفي هذه الآيات البينات تنبيه للغافل، وإلزام الحجة للذاهل الضالّ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الخطاب للرسول والمقصود كل الأمة، والاستفهام فيه لمعنى

- على قوم يتفكرون في الله فقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره». (٢١٦/١).

التقرير والبيان، وتسييح الكائنات أسند إلى العقلاء والمقصود به الكل من باب التغليب، إذ جاء قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤).

وقد اختلف المفسرون في تعيين مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي ضمير علم، أهو راجع إلى لفظ الجلالة أم إلى كل، أم إلى ذكر الله؟ ولكن آية سورة الإسراء وقوله تعالى في هذه الآية نفسها: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ترجح أن يكون الضمير راجعا لله تعالى، لأن ذلك هو محل القدرة الإلهية في إلهام كل الكائنات طرق كسب معيشتها ووسائل تفاهمها بكيفية عجيبة يحاول العلماء أن يضبطوا البعض منها بتسجيل تلك الأصوات لاستخدامها في تسيير بعض الأسراب كالجراد والنحل، وفي تسخير بعض الدواب المتوحشة أو ترويضها، والله الخالق لهذه الكائنات يخبرنا في سورة الأنعام أن لها وتيرة حياة لا تقل في نظامها وانضباطها عن وتيرة حياتنا فقال جل من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

ثم إن القرآن يذكر كيف أن الله تعالى امتنّ على سيدنا سليمان، إذ علّمه منطق الطير، وأورد في سورة النمل ذلك الحوار الذي جرى بينه وبين الهدد في إخباره بضلال بلقيس وقومها، ثم تبسّمه ﷺ لقول النملة وتسخيره للجان، مما يعدّ ميزة حصّ الله بها هذا الرسول، وفي ذلك دليل على قدرة الله وعلمه المحيط بكلّ شيء، بما في ذلك هذه الأصوات التي لا يفقه منها الإنسان شيئاً إلا أن يكون ذلك من إلهام الله ووحيه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: تُكرّر هذه الآية في كثير من سور القرآن لتقرير حقيقة الملكية، وأن المالك الحقيقي للأشياء هو الذي يملك إيجادها والتصرّف فيها كيف يشاء، فهو المالك لأصولها والمدير لشؤونها، وأمّا نحن البشر فلا نملك إلا حقّ الانتفاع لفترة معيّنة ثم تنتقل إلى غيرنا، كمن استلم وديعة إلى أجل معيّن ليردها إلى صاحبها متى حلّ ذلك الأجل، ولذا فإن هذه الحقيقة الكونية لا تنكشف للناس إلا عندما يخرجون من حدود الزمان والمكان بعد قيام الساعة حيث ينادى المنادي: لمن الملك اليوم؟، فلا يجيب يومئذ إلا ضمير الوجود الخاشع: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

وللإمام الفخر الرّازي ملحظ وجيه في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ

الْمَصِيرُ ﴿٤١﴾، يقول: "فهو عبارة تامة في معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه، وله وجه آخر، وهو أن الوجود يبدأ من الأشرف فالأشرف فإنزالا إلى الأخس فالأخس، مترقيا إلى الأشرف فالأشرف، فإنه يكون جسما، ثم يصيرُه موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الإنسانية، ثم الملكية ثم ينتهي إلى واجب الوجود لذاته، فالاعتبار الأول هو قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والاعتبار الثاني هو قوله: ﴿وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾". (١)

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.

هذا هو الدليل الثاني لعظمة الله وقدرته متمثلا في تلك الظاهرة التي يمتاز بها الغلاف الجوي للأرض حيث أودع الله موردا ضخما يضمن للكائنات عنصري الحياة من الهواء والماء، فهي عند الناس ظاهرة طبيعية يعيشونها كل يوم أو في مواسم معينة لبعض المناطق، ولا يكادون يتبهون لليد القادرة التي تنشئ تلك السحب ثم

تسوقها بعيدا عن منشئها في البحار والمحيطات لتسقي اليابسة وتحيي الأرض الموات، لقد تكرر ذكر هذه الآية في كثير من سور القرآن، وغالبا ما تقرن بقدرة الله في إعادة الخلق للحياة الأخرى كقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠).

وهنا في هذه الآية وصف دقيق لكيفية نشوء السحب وتراكمها مثل الجبال وهي معلقة بين السماء والأرض تحمل تلك الملايين المكعبة من المياه وقد تتزلزل برذا متجمدا عندما تشتد برودة الجو، والبرد مدمر متلاف في أغلب أحواله، فكان التعبير بفعل "أصاب" مناسبا لهذه الكارثة الطبيعية، وليس إلا لطف الله وحفظه ملاذا منها، وفي نزول المطر قطرات في شكل وابل أو طل، ما يدلنا على دقة صنع الله ورحمته بعباده، ولو شاء لتزلزل أعمدة وخيوطا من ماء متصلة فأهلك الحث والتسل، وآتى للإنسان بوسائل الضعيفة أن يخزن تلك المياه لوقت حاجته لولا خزائن الله على رؤوس الجبال ثلوجا، وفي باطن الأرض خزائن وسدودا قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوِاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢). وقال في سورة

المؤمنون: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٨).

قال تعالى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، هذه هي الآية الثالثة جيء بها على الاستئناف الابتدائي، وأشير بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ مؤكداً بـ"إن" و"اللام"، على أن الإشارة تعود إلى قوله: ﴿يَقْلِبُ﴾ لأنها ظاهرة مستقلة عما سبق وقد تكرر في القرآن الكريم إلفات النظر إلى ظاهرة اختلاف الليل والنهار، وأن ذلك يتم بتسخير الله وقدرته لما فيه من منافع لحياة الكائنات سعيًا ونشاطًا في ضوء النهار وخلودًا إلى النوم والراحة في الليل، إذ لو شاء الله لجعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة، أو النهار سرمداً إلى يوم القيامة كما فصل ذلك في سورة القصص بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَاتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَاتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧١-٧٣).

وبحكم الإلف والعادة، فإن الإنسان قليلاً ما يعتبر بتلك

الظاهرة العجيبة، فلا يشعر بأن حلقات الزمان إنما هي خطوات تجرّه إلى مصيره المحتوم، ولا يعتبر بذلك إلا من آتاه الله فهما وبصيرة فيغتنم فرصة عمره للتزوّد بما ينفعه في رحلته الأبدية.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

هذه هي الظاهرة الرابعة الدالة على قدرة الله وعظمته، فهو الخالق المصور، وهو المدبّر الحكيم، خلق كلّ دابة من ماء، فالخلق والإيجاد منه تعالى لكل ما يدبّ على وجه الأرض مما هو جليّ أو خفيّ، ولما كان عنصر الحياة الأساسي هو الماء فقد جعله أصل الخلقة الأول، وقد يراد به ماء المنيّ في الذكر تلقح به بويضة الأنثى كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩). وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

ثم ذكر الله أنواعا من تلك المخلوقات فنبهنا إلى ما هو أقرب إلينا تسخييرا وارتفاعا، على اعتبار أن الإنسان في قمة تلك الكائنات باستواء خلخته وارتفاع هامته ونضج عقله، ولما كان

الذئب على وجه الأرض يتم على الأرجل خطوا وعلى البطون زحفا، فقد ذكر ما خلقه وسيلة لذلك من عدد الأرجل، لا على وجه الحصر، بل على وجه المثال المعروف لدينا والأكثر اتصالا بنا من الطيور والأنعام والحيتان، ويبقى ما وراء حسنا المشاهد من الكائنات الأخرى، يبقى اكتشافه بتطور العلم، فقد توغل الإنسان في كشف كثير من المخلوقات الدقيقة، حتى فك لغز الجينات وتقن في تحليلها وتركيبها. ولكنه ما يزال عاجزا في فك لغز الحياة وكيف يسري ديبها في جهاز الخلية الواحدة، وهو يسعى بذلك من جهة أخرى إلى فك لغز الموت وهيهات، والخالق العظيم يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

وقوله تعقيا على هذه الظاهرة: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والتعبير بـ"ما يشاء" لغیر العقلاء يدل على تعدد المخلوقات مما علمناه وما لم نعلمه، أوجدها الله وخلقها كما أرادت حكمته، على غير نمط سابق ولا تصميم مصمم، أصلها واحد وهو الماء، ولكن تعددت أشكالها وأنواعها، وقلدها الإنسان في كثير من مصنوعات، ولكنه لا يملك أن يمنحها الحياة، ولا يبلغ في ذلك بديع صنع الله، وهو على كل شيء قدير

لا يحدّ من قدرته عجز ولا جهل كما هي حالة الإنسان.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: آيات الله الناطقة هي هذا القرآن الذي نلوه وتدرّبه، فهو نور الله الذي تشرح له صدور من وفقه الله إلى الهداية من المؤمنين والمؤمنات، وآيات الله المبينات هي -أيضا- ما بثّه في صفحة الكون علويّه وسفليّه، وما أودعه في أجسامنا من بديع الصنع وفي سائر المخلوقات -كما تقدم- والتعبير بالإنزال هو لكونها من لدن الخالق العظيم الشأن فهو إذ أنزلها إلينا يلفت أنظارنا لتأملها وتدرّبها إذ هي الوسيلة الفضلى لإدراك عظمته وقدرته، ومن شأن المتدبّر المتأمل أن يخشع قلبه ويكون أهلا للاستقبال والتلقي لأنوار الهداية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١). وكما قال الإمام البوصيري:

وإذا حلّت الهداية قلبا نشطت في العابدة الأعضاء

فلا جبر ولا إكراه على الهداية والسّير على الصّراط المستقيم، وإنما هي القناعة الذاتية لكل شخص ثم الكسب المختار لما يريده من الإيمان والصّلاح أو الكفر والفسوق والعصيان.

جعلنا الله تعالى من أهل الإيمان والتقوى ووفّقنا لما يحبه ويرضاه، والله أعلم.

بعض صفات المنافقين

(أ) - النص:

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ
مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ أَمْ إِنْ تَأْتُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿آيَاتٌ مُبِينَاتٌ﴾: تستعمل الآية في القرآن ويقصد بها علامات قدرة الله على صفحة الكون مما خلقه وأبدع صنعه، فهي آيات صامته، ويقصد بها آيات الوحي المتزل من القرآن، وهي الآيات الناطقة، وهي المقصود في هذه الآية لاستعمال فعل: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، وكونها مبينات لأنها واضحة محكمة لا لبس فيها. ﴿مُذْعِنِينَ﴾: أي خاضعين مستسلمين لا عن إكراه في هذا المجال بل عن رضى وقناعة لاعتقادهم أن الحق إلى جانبهم. ﴿يَخِيفُ﴾: هو الظلم والجور في الحكومة عند التقاضي.

ج- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾، وقد تقدم قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (التور: ٣٤). وبين هذه وتلك يرد مثل نور الله في آفاق الكون وفي نفوس المؤمنين وكيف يقتبسونه من بيوت الله التي أذن الله أن ترفع وما هي مواصفاتهم وهم مشبعون بذلك النور الإلهي بينما الذين كفروا لا يستقيم لهم عمل وإن كان في ظاهره براً وإحساناً، وهم إذ أخطأهم ذلك التور في ظلمات مطبقة، وهم بذلك لا يعجزون الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وبعد عرض بعض آيات الله الكونية في السماء والأرض تحيء هذه الآية بدون عطف على ما قبلها كما في سابقها لأن المقصود بالآيات هنا القرآن الذي هو مصدر الهداية من الله لمن يشاء من عباده عامة، إذ جاءت عقب ذكر الآيات الكونية التي هي معروضة لكل الناس بينما جاءت الآية السابقة بعد الأحكام الموجهة للمسلمين خاصة فكان زيادة ذلك القيد بقوله تعالى: ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

والإِهْتِدَاءَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ لَهُ طَرَقُهُ وَوَسَائِلُهُ، وَذَلِكَ بِالْتَّمَعْنِ وَالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ النَّاطِقَةِ وَالصَّامِتَةِ، وَشَتَانُ بَيْنَ مَنْ يَصِرُ وَيَسْمَعُ ثُمَّ يَتَدَبَّرُ وَيَعْقِلُ، وَبَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بَدُونِ وَعْيٍ وَلَا إِحْسَاسٍ كَمَا تَفْعَلُ الْبَهَائِمُ.

أَمَّا عِلْمُ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ وَمَشِيئَتُهُ الْمُقْتَدِرَةُ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِ خَلْقِهِ فَتِلْكَ مَرْتَبَةٌ لَا نَتَطَاوَلُ إِلَيْهَا كَمَا فَعَلَ الْجَبْرِیَّةُ وَالْقَدْرِیَّةُ فَنَحْنُ مُقْتَنِعُونَ عَلَى أَنْ لَنَا كِسْبًا وَاخْتِيَارًا فِي مَا نَأْخُذُ وَمَا نَدْعُ فِي مَسْلَكِ حَيَاتِنَا مَادِيًّا وَرُوحِيًّا.

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾:

أَيَا كَانَ سَبَبُ النَّزُولِ لِهَذِهِ الْآيَةِ كَمَا أَثْبَتَهُ الرَّوَايَاتُ، فَإِنْ هَذَا النَّوعُ مِنَ النَّاسِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَخْلُو مِنْهُمْ زَمَانٌ وَلَا مَكَانٌ فِي آيَةٍ حَرَكَةٍ أَوْ دَعْوَةٍ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ اجْتِهَادَاتِ الْبَشَرِ، فَمَا بَالُ دَعَوَاتِ اللَّهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؟، وَضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي "يَقُولُونَ" وَإِنْ يَعُدُّ إِلَى مَذْكُورِينَ مِنْ قَبْلُ، فَهُمْ مَعْرُوفُونَ لَدَى السَّامِعِينَ، فَإِذَا كَانَتْ الْهُدَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النور: ٤٦) قَدْ تَحَقَّقَتْ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا تُلْهِهِمْ

تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فإن هؤلاء الذين يدعون الإيمان
بألسنتهم قولاً بدون عقيدة صحيحة ولا عمل صالح، هم ممن
قضت المشيئة الإلهية أن يعرضوا عن تلك الهداية، لأن الإيمان كما
ورد في الأثر: « ما وقر في القلب وصدقته العمل »^(١) ولذا صحَّ
أن ينفي الله عنهم صفة الإيمان: ﴿وَمَا أَوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

والإشارة إليهم بالبعد يؤكد بعدهم عن طبيعة المؤمنين الأوفياء
والفصل بـ "ثم" بين القول وفعل الإعراض يدل على أن الباعث
للإعراض بعد ادعاء الإيمان والطاعة أنهم من أول أمرهم كاذبون،
غير أن الذي يظهر ما يخفونه من كذب هي مواقفهم عند التنازل
والخصومات، فهناك تتمحّص نواياهم، والحظوظ النفسية عند
الإنسان هي المحك الحقيقي لطبيعته.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
مُّعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾:

الدعوة للتقاضي إلى حكم الله هي من صميم الدين لا يحتاج
فيه المؤمن الوفي إلى من يرشده إلى ذلك كلما نزلت به نائبة، غير
أن هؤلاء المنافقين يتهربون عن حكم الله بمختلف الحيل، حتى إذا

دعوا إلى حكم الله العادل بادروا بالإعراض، دونما تردد لأنهم واثقون بأن الرسول لا يماري في الحق والعدل، كما يعرفون أنهم على باطل، بينما هم يأتون إليه في إذعان ورضي حين يكون الحق إلى جانبهم.

وعدم الرضا بحكم الرسول في كلتا الحالتين كفر ونفاق، لأن الله تعالى وضع للإيمان الصادق معيارا دقيقا في مثل هذه الحالات فقال جل من قائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

يقول الشيخ الإمام في تفسيره في رحاب القرآن: "قلما يتخاصم اثنان إلا ويعلم كل منهما نصيبه من الحق أو الظلم، ولكن الظالم يقول على الفجور في الخصومة وذلك شأن المنافق، إذا خاصم فجر".^(١) وليس إتيانهم مدعين في هذه السورة أي مراعاة منهم لميزان الحق والعدل، بل هو للاتفاف العاجل.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾:

١- إبراهيم بيوض، في رحاب القرآن "تفسير سورة النور": ص ١٢٦.

الاستفهام للتعجب من أحوال هؤلاء، لأن إعراضهم عن حكم الرسول ينبني على ثلاثة أسباب:

(أ) - مرض القلب: وهو كناية عن التفاف المتأصل، والقلب هو مستودع الأسرار النفسية صالحها وفاسدها، والقلب المريض لا يستقر به الإيمان الصحيح.

(ب) - الشك والارتباب: ومع ضعف الإيمان بوحانية الله ونبوة الرسول، فهم في ريب من عدالة حكمهما، وسوء الظن ينبثق عن سوء الفعل وسوء الأخلاق، لأن الإنسان يقيس غيره بما في نفسه كما قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
(ج) - الخوف من الحيف: أي الجور في حكم الله ورسوله، وحاشا لله ولرسوله أن يصدر عنهما حيف أو ظلم، كما قال الإعرابي لرسول الله: "أعدل فإنك لم تعدل". هكذا بكل جرأة ووقاحة، فأجابه الرسول: «ويلك، من يعدل إذا أنا لم أعدل».

فالإيمان الصادق يقتضي أن لا يرتاب المؤمن في ما يحكم به رسول الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَّغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

فكلّ من تناوشه هذه الصّفات الثلاث فهو منافق خادع للمجتمع المسلم، إذ لا يمكن أن يكون متجاوبا معه في السّراء والضّراء، وبالتالي لا يعتبر تلك الشّركة مع المجتمع المسلم إلا مصيدة لمنافعه الخاصّة.

والاستجابة لدعوة الرّسول والإذعان لحكمه هو من طاعة الله والاستجابة لدعوته، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤). وقد رتب العلماء على ذلك حكم الاستجابة لكلّ من دعاك إلى حكم الله من قضاة المسلمين أو من الدّاعين إلى الخير والسّاعين في إصلاح ذات البين، فعلى المؤمن الوفيّ أن يستجيب لدعوة هؤلاء ما داموا يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله. ولكننا نشاهد اليوم - بكلّ أسف - هذا النوع من الظّلمة كيف يتحافون عن حكم الله ولو كان قطعيا صريحا تمسكا بقوانين وضعية من صنع البشر.

﴿بَلْ أَوَّلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: وما أخرى هؤلاء بأداة الإضراب والإشارة بالبعيد: "أَوَّلَتْكَ" ثم ضمير الفصل: "هُم"، ما أحراهم بتلك الصّفة من الظّلم لأنفسهم ولغيرهم، فهم جرثومة في المجتمع المسلم يجب أن يحذر منهم، وقانا الله شرهم، والله أعلم.

فلاح وفوز المؤمنين الأوفياء

أ- النص:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيُخْرِجَهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

ب- البيان والتفسير:

قضية الاحتكام إلى رسول الله في ما يشجر بين الناس من الخصومات وموقفهم منها كانت هي المحك الدقيق للتمييز بين الإيمان الكاذب الزائف، والإيمان الصادق الراسخ، وعلى منهجية القرآن في المزاوجة بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، جاء هذا الاستئناف البياني لصنف المؤمنين الصادقين، وجيء بأداة الحصر "إِنَّمَا" لتأكيد الإخبار بصفة المؤمنين الحقيقيين، حتى لا تختلط المفاهيم لدى السامعين، فإن شأن هؤلاء هو السمع والطاعة بدون تردد لأنهما ينبثقان عن الثقة المطلقة في عدالة الله ورسوله وينبعان عن التسليم والإيمان بأن حكم الله ورسوله لا يشوبه هوى ولا مراعاة منفعة لشخص على آخر، بل هو الحق والعدل

والخير لكل الناس على حدّ سواء.

والتعبير بالسمع والطاعة هو المشهور في لسان العرب للدلالة على الانقياد والخضوع، لأن في تغيير هذه الألفاظ بمرادفهما أو بما يؤدي معناها وسيلة يستعملها المنافقون لتحريف المعنى كما ورد في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ (النساء: ٤٦).

وحكم الله للمؤمنين بالفلاح، وأكد ذلك بنفس المؤكيدات السابقة في شأن المنافقين لمقابلة الذم هناك، بالمدح هنا: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

جاء بـ "من" الشرطية في الحكم بالفوز وبـ نفس التركيب لتعميم الحكم حتى يشمل كل أنواع الطاعات، ويلاحظ فيه زيادة خشية الله والتقوى إلى جانب الطاعة وهما من دوافع القلب، لبيان نوع الطاعة المطلوبة لتكون حبل النجاة للمؤمن ومناط الفوز بالجنة، تلك الطاعة التي تنبثق عن إشراق القلب بنور الله ومحبه مع إجلاله وتعظيمه طلباً لرضاه وافتاء لسخطه، فالخشية لا تعني

الخوف وحده، بل هي أجصر من التقوى ومن الخوف.

يقول الدكتور الشرباصي في كتابه القيم موسوعة أخلاق القرآن: "وقد فرّقوا بين الخوف والخشية، فقالوا إن الخوف خشية سببها ذلّ الخاشي، وأن الخشية سببها عظمة المحشي، ولذلك كان العلماء بالله أكثر خشية، لأنهم عرفوا عظمة الله فخافوه، لا لذلّ منهم، بل لعظمة جانب الله، والعبد إذا نظر إلى نفسه وجدها في غاية الضّعف فيشعر بالخوف، وإذا نظر إلى حضرة الله رآها في غاية العظمة فيشعر بالخشية، ودرجة الخشية فوق درجة الخوف، وإن قربت منها واتصلت بها".

وتقول ربعة العدوية في معنى الحبّ الإلهي:

كلهم يعبدون من خوف نار و يرون النّجاة حظا جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا بقصور ويشربوا سلسيلا
ليس لي في الجنان و النار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلا
﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: حصر الله الفلاح في هذا الصّنف
من الخلق، لأن ما سوى الله باطل وعرض زائل، وقد ذكر الله
مواصفات كثيرة للمفلحين من عباده وتلخص كلها في صفتي
الخشية لله وتقواه، متعنا الله بمحبته ورضاه، والله أعلم.

عود إلى بيان صفة المنافقين

أ) - النص:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا
طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا
تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي حلفوا إلى أقصى غاية الأيمان. ﴿طَاعَةٌ
مَعْرُوفَةٌ﴾: أي الطاعة المطلوبة الصادقة من أهل الإيمان أو بمعنى:
الله أعلم بطاعتكم بأنها كاذبة. ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا
حُمِّلْتُمْ﴾: ما حمّله الرسول هو إبلاغ الرسالة، وما حمّله الخلق هو
الطاعة والامتثال.

ج) - البيان والتفسير:

قد يضطرّ الإنسان إلى الحلف ليؤكد للسامع المقسم عليه، وهو
هنا إظهار الإذعان من طرف المنافقين لرسول الله إذا أمرهم

بالخروج معه إلى الجهاد، ولكي يموهوا نفاقهم كانوا يبالغون في أقسامهم ولكنهم كاذبون في ذلك كما قال عنهم تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المنافقون: ٢). ولذلك فضحهم الله بقوله: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾، فنهاهم عن ذلك الحلف، لأنه كذب ونفاق وذلك لا يخفى على الله، ولديهم سوايق على ذلك كما فضحهم في سورة النساء بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ (٨١).

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: فلطالما فضح سرائرهم وكشف مواقفهم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾:

إن الله تعالى رحيم لا يوصد الأبواب، ولكنه يعطي لهم الفرصة مرة أخرى لحسن الطاعة والانقياد، فكرر الأمر بطاعة الرسول للدلالة على بيان مهمته من الإبلاغ والإرشاد، حتى يتناسب مع قوله بعد ذلك: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، ثم كان

الضَّمير بالافراد في قوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، لأنَّ الطَّاعَةَ لله والرسول واحدة في جوهرها: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

وما أروع أسلوب الدَّعوة بالحسنى دونما إكراه ولا إغاثات، ولكل من الدَّاعي والمدعويين حدود واجبه من الإبلاغ والبيان ومن الطَّاعة والامتثال، والله أعلم.

التمكين للمؤمنين في خلافة الأرض وشروط ذلك

أ- النص:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

ب- التحقيق اللغوي:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: يجعلهم خلفاء له في عمارة الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾

لَهُمْ دِينُهُمْ ﴿٥٥﴾: تَمَكِينُ الشَّيْءِ لِعُيُوبِ تَثْبِيتهِ وَتَرْسِيخِهِ، وَتَمَكِينُ الَّذِينَ يَكُونُ بِشِيعَتِهِ وَانْتِشَارِهِ وَاكْتِسَابِهِ لِلْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَالسِّيَادَةِ. ﴿ارْتَضَى﴾: ارْتَضَى الشَّيْءَ أَيْ اخْتَارَهُ. ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: الْخُرُوجُ أَوْ الْانْحِرَافُ عَنِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.

(ج) - البيان والتفسير:

من أكبر الدوافع للنفاق خشية المنافقين من وضعية المسلمين في المدينة أمام تحديّ المشركين ومحاولتهم إخراج المسلمين منها، ولذلك فهم يظهرون الإسلام ويطنون الكفر، ولم يؤمر الرسول بفضح أمرهم، وما يزال المسلمون يعيشون في خوف مستمر لا يلقون السلاح، وما تزال أحكام الدين تتوالى بتزول القرآن، وبالتالي فإن رسول الله يرفع أركان الدولة الإسلامية الناشئة على أسس مبنية وهو مترفق شفق، وأصحابه الأوفياء المخلصون لا يألون جهدا في توفير أسباب التجاح والتّمكن لدولتهم الفتية.

ذلك هو الجو الذي نزلت فيه هذه الآية، والذي يشخصه أبو العالية في هذه الرواية فيقول: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه، خائفا هو وأصحابه، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجل: يا

رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟، فقال رسول الله: «لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً ليس عليه حديدة».^(١)

ومع قوله تعالى مخاطبا المنافقين في الآية السابقة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤). وبعد هذا الترغيب في طاعة الرسول للحصول على الهداية التي لا يملك الرسول من أمر تحقيقها للناس إلا التبليغ، ناسب أن يجيء هذا الوعد الإلهي يطفح بشرى لأولئك الذين يحنّون إلى الأمن والاستقرار، وإغراء واستئناساً لمن ظلّ في ريب وتردد ونفار.

ويعجبني ما أورد الإمام الرازي في سياق نظم الكلام بين الآيتين إذ يقول: "اعلم أن تقدير النظم: بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون، فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض إلخ..."^(٢)

١- أورده القرطبي في تفسيره، ٢٩٧/١٢.

٢- الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٢٤/٢٤.

قلت: لعل الأنسب أن يقال: إن الطاعة المطلوبة لله والرسول والمحقة للهداية لا تكون بمجرد الإيمان القولي كما فعل المنافقون، بل هي الطاعة التي تنبثق عن الإيمان القلبي الراسخ وتتجسد في النشاط الإنساني كله عملاً صالحاً وسلوكاً نظيفاً يكون تبعاً لما جاء به الرسول من عند الله، وبالتالي فهذا النوع من الطاعة هو الذي يستحق الموعود به من الله في هذه الآية الكريمة من الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين وتوفير الأمن.

وفعلاً، فقد أنجز الله ما وعد إذ دانت الجزيرة العريضة كلها للإسلام قبل وفاة رسول الله، كما بشر أصحابه بخضوع الممالك ودخولها في الإسلام، وثبتت عنه أحاديث في ذلك منها قوله **عليه السلام**: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمي ما زوى لي منها»^(١).

وقد تحققت تنبؤات الرسول بعد وفاته إذ استمر المد الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين حتى بلغ تخوم الصين شرقاً والأندلس غرباً، حتى قال النبي **ﷺ** عن سراقه بن مالك - وكان الصحابة

١ - رواه مسلم من حديث ثوبان، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضها ببعض، رقم ٢٨٨٩.

يعجبون لدقة ساعديه - بعد أن تاب، قال الرسول عن ساعديه: «كيف بهما في سواري كسرى؟» وقد ألبسهما إياه عمر رضي الله عنه بعد فتح فارس فصدمت بذلك تنبؤات الرسول. ^(١)

وإن كان الخطاب في الآية الكريمة، يتوجّه أولاً وبالذات إلى الرّاعيل الأولى، وقد أنجز الله لهم ما وعد - كما تقدم - فالحكم فيها عام لجميع المسلمين، وإن كان واقعهم اليوم لا تنطبق عليه الآية الكريمة، لأن ذلك الوعد مشروط فيه:

(أ) - أن تكون الحكومات قائمة بحق الاستخلاف عن الله وفق شريعته الغراء، لا مكان فيها لحاكمية غير الله في تدبير شؤون الحياة.

(ب) - أن يلتزم المسلمون بحق عبادة الله وحده التزاماً كاملاً لا مكان فيه لنفاق أو شرك.

﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾:

وهذا التحذير البالغ من الكفر بعد الإيمان يشمل نوعي الكفر،

أي كفران نعم الله، أو إنكار هدي السماء كلية، فإن حكم
الفسق هو الأنسب لكليهما، غير أن العقوبة الإلهية تختلف بين
الحالتين، فقد يمكن الله لغير المسلمين تمكين غلبة وطغيان إلى حين
كما أصبح عليه أعداء الإسلام اليوم في أوروبا وأمريكا، ولكن لا
يصح أن نسقط عليهم معنى الآية الكريمة، وذلك لافتقادهم
العنصر الإيماني الصحيح، فما ذلك إلا من تداول الأيام بين الناس.

كما أن المسلمين الجغرافيين اليوم هم في تبعية وذلة لخصومهم
لأنهم لم يمكنوا لدين الله، ولم يخلصوا العبادة لله وفق ما اشترطه
الله عليهم في هذه الآية الكريمة.

وعلى اعتبار الكفر بنوعيه، فإن المتصف بأي نوع منهما هو
في حكم الله فاسق لا يمكن أن يتحقق له وعد الله، ولا أدل على
ذلك اليوم من حالة الخوف والاضطراب وكثرة الفتن
والمواجهات، والله عاقبة الأمور.

والله أعلم

الذين كفروا غير معجزي الله

(أ) - النص:

وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾
لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن مَّصِيرٍ ﴿٥٧﴾

(ب) - البيان والتفسير:

لما أمر الله تعالى المؤمنين بإخلاص العبادة له وجعل ذلك شرطا لإنجاز ما وعدم به في الآية السابقة، وبأسلوب الالتفات وجّه الأمر إليهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة خصوصا وبطاعة الرسول عموما، ونظرا لأهمية الركنتين العظيمين في الدين: الصلاة والزكاة، فقد تكرر الأمر بهما في القرآن مقرونين غالبا بمختلف الصيغ، إذ هما الدعامتان الأساسيتان في بناء الإسلام، فليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة، وما قتال أبي بكر رضي الله عنه لمناعي الزكاة بعد وفاة الرسول إلا دليل على أن لا إسلام بدون ممارسة هذه الأركان، وذلك لما لها من عظيم التأثير في السلوك الفردي والاجتماعي.

يقول الشيخ الإمام بيوض في تفسير سورة النور: "والتي يؤكد الأمر بذلك، فهو يأمرنا أن نأمر أولادنا بالصلاة لسبع ونضربهم

عليها لعشر، ويأمرنا بإخراج الزكاة حتى من مال الأولاد اليتامى وأن نتحر فيها حتى لا تأكلها الزكاة، فهما الركنان اللذان يلزمان الموحد منذ صغره وفي حداثة سنه".

ثم عمم الطاعة للرسول في كل ما يبلغه عن الله تعالى إذ لم يعين لنا ما نطيعه فيه، وقد بين الله تعالى كيفية تلك الطاعة في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧). ونحن بذلك نرجو رحمة الله في الدنيا والآخرة، ومن بدع التأملات الربانية للشيخ الإمام بيوض - رحمه الله - في ذكر بحالات رحمة الله عند تفسيره لهذه الآية أن قال: "إننا متى فعلنا ذلك رجونا رحمته، ورحمته وإن عمت الخلق في الدنيا ولكنها في الآخرة تخص أهل طاعته كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦). فهم وحدهم يستحقون رحمة الله الدائمة" (١).

﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾: فما أنسب هذه الآية الكريمة للحالة

١ - إبراهيم بيوض، في رحاب القرآن "تفسير سورة النور": ص ١٣٧.

الضُّنْكَ الَّتِي يَعِيشُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ، فَإِنَّ لِلْكَفَرِ الْغَلْبَةَ وَالسُّلْطَانَ كَمَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ أَيَّامَ تَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَعِنْدَمَا يَمْتَحَنُ الْإِنْسَانُ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ حَتَّى وَهُوَ يَتَلَقَّى الْوَعْدَ تَلَوُّ الْوَعْدِ بِالْتَّمَكِينِ وَالنَّصْرِ فَإِنَّهُ قَدْ يَنْتَابُهُ الشَّكُّ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ؟

أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

ولنفي ذلك الشك جاء هذا النهي الإلهي عن الشك في قدرة الله أن يغيّر تلك الأحوال، فيقهر المتكبرين ويمنّ على المستضعفين، فهو على ما يشاء قدير، نزلت هذه الآية الكريمة والمسلمون يومئذ في قلة وضعف يواجهون ثالوثاً متعاوناً من الأعداء من مشركي قريش وأشياعهم من المنافقين واليهود في المدينة.

ومع اشتداد الأزمة واستحكام حلقاتها قد تخور العزائم ويتسلّل الشيطان إلى النفوس الضعيفة وتظن بالله الظنون، فكان هذا النهي الإلهي: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، فهو القادر على قهر أعدائكم وعلى إزلالهم وكسر شوكتهم، ولكن

الله يريد أن يمحّصكم ويلو بعضكم ببعض فتفتكون النصر
بأيديكم والله من وراء ذلك محيط فلا يضرّكم كيدهم شيئاً كما
قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ولنا من ماضينا المجيد عبرة وأي عبرة لحاضرنا البائس،
ولأعدائنا قوة وسيطرة على العالم، ولكن للمسلمين -بفضل الله-
صحوة وعودة وعي ولهم تضحيات جسام، ولهم صولات
وجولات في كلّ حاضرة وسهل وواد، فإن ظنّها الأعداء
صيحات تذهب مع الرّيح كنفخة في رماد فستقتلع غداً
-بعون الله- كلّ الحواجز وتذهب بالأوتاد، لأنّ المحن والمصائب
تربّي الشعوب، وتبعث على الرّقي والنّهوض: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ
عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

تلك هي حكمة الله وإرادته في تدبير شؤون خلقه في الحياة
الدنيا، وفي الآخرة الجزاء الأوّفى لكل متكبر جبار فمأواه جهنم
وبئس القرار، والله أعلم.

الحالات التي يجب فيها الاستئذان داخل الأسرة

(أ) - النص:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ
بَعْدَ هُنَّ طَوْفَوْنَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا
أَسْتَذِنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: هم العبيد والإماء على أرجح الأقوال، وعند ابن عمر أنه خاص بالرجال. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾: الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ التكليف والحلم بمعنى البلوغ. ﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾: أي تخفون ثيابكم في وقت الظهر للقبولة. ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾: العورة ما يجب أن يستر، وتدل الكلمة على الخلل فيقال: الأعور للذي له خلل في عينيه، والأوقات الثلاثة: قبل الفجر وبعد العشاء وعند الظهر

يَحْتَلَّ فِيهَا التَّسْتَرُ بِالْقَاءِ الثِّيَابِ. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾: يعني لا إثم عليكم بعد هذه الأوقات ولا على الصبيان في الدخول عليكم بغير استئذان. ﴿طَوَفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: هم يدخلون ويخرجون لمخالطة والخدمة لبعضكم بعض. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾: أي بمثل ذلك التبيين يوضح الله تلك الأحكام التي تصلح لمجتمعكم.

(ج) - البيان والتفسير:

عود إلى الأحكام التي تنظم شؤون الأسرة بما فيها من الأبوين والأولاد والأتباع من الخدم وغيرهم، فقد تقدم آداب استئذان الأجانب بعضهم على بعض، أما موضوع هذه الآيات فهو استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وقد جمعهم بيت واحد وقد يكون الأبوان في خلوة يتخففون من ثيابهم فيكرهون أن يدخل عليهم أحد وهم على تلك الحالة.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظُّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا

عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

ينادي الحق تعالى المجتمع المؤمن بأعز الصفات إليه صفة الإيمان ويناديه بصيغة الجمع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حتى يشعروا بالمسؤولية التضامنية في تنفيذ أحكام الله، فيتأصل في نفوسهم خلق المراقبة والتقوى لله، وهو يعدهم بالتوفيق والسداد وبالنصر والتمكين، ذلك لأن المجتمع الجاهلي قد تندّ تقاليده وعاداته عن معايير الأخلاق والتصوّن داخل البيوت، سيما في تعاملهم مع المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ومسؤولية البيت تقع على الأبوين، فلا بدّ من القيام بتلك المسؤولية على الوجه الأكمل في التوجيه والتأديب للأبناء من الخدم والأولاد، فهم يترددون علينا في البيت دخولا وخروجا وقياما ببعض الواجبات البيئية، فالمطلوب منهم أن يستأذنوا في الدخول عليكم في ثلاثة أوقات:

أ- ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾: حدّد الوقت لاستئذان العبيد والأولاد الصغار بما قبل صلاة الفجر وهو وقت للنوم والراحة يقوم المؤمن لأداء الصلّاة عند طلوع الفجر، ومن طبيعة النائم أن يسترخي على فراشه ويتقلب عليه كيفما شاء متخففا من ثيابه، وربما اتخذ لنومه لباسا خاصا فلا يليق أن يراه أحد على تلك

الحالة، والمفروض من المؤمن الحازم أن يجعل صلاة الفجر هو الحد الأقصى لنومه بالليل إن قصرت همته عن قيام الليل أتباعاً لسنة رسول الله، فما أروع أن يستقبل نشاط فهاره بصلاة الفجر ثم ينطلق إلى عمله كما تفعل الطير تغدو خماساً وتروح بظاناً، وكما روي عن رسول الله أنه قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»^(١).

(ب) - ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ﴾: أي وقت القيلولة، اختار الله ذكر وضع الثياب في وقت الظهيرة دون ذكر النوم فيها لأنه تعالى علّم بمألوف الناس وأن عاداتهم تختلف من منطقة إلى أخرى، فهناك في المناطق الباردة من لا يقيل، إذ يواصل العمل بكيفية متصلة حتى المساء، بينما سكان المناطق الحارة يسترخون في الظهيرة عند لفح الشمس ويتخفّفون من ثيابهم فيستلقون ولو لم يناموا، وبذلك تتجدّد قواهم لمواصلة العمل في العشية.

(ج) - ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾: لأنه وقت للنوم يكون الزوجان في خلوتكما فلا يجهز أن يقتحمها عليهم أحد، عييدهم

١- رواه الترمذي من حديث صخر الغامدي، كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم ١٢١٢. وقال: حديث حسن.

أو أطفالهم. وقد أرشد الرسول أن نجعل صلاة العشاء آخر أعمالنا، غير أن التقليد الأعمى يجعل الكثير منا يسهر الليل حتى منتصفه أو أكثر، ثم هو لا يقوم لصلاة الفجر في وقتها، وإذا قام فهو يعود إلى النوم بعدها.

وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾، أي هي أوقات يختل فيها تستركم فلا يليق لأحد أن يراكم فيها، لأن العورة يحرم النظر إليها.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾: أمّا في غير تلك الأوقات الثلاثة فليس عليكم إثم ولا ذنب ولا على العبيد والأولاد أن يدخلوا عليكم لأن وضعيتكم تكون عادية مما تقتضيه خدمة البيت من الممارسات اليومية، فيطوف بعضكم على بعض فلا يكون تكرير الاستئذان في كل مرة.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: أي بمثل ذلك التبيين الواضح يشرع الله لكم الأحكام التي تنظم علاقاتكم والله عليم بطبائع نفوسكم حكيم في تدبير شؤونكم بما هو الأصلح.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
 إذا شبَّ الأطفال وكبروا يفرض عليهم الاستئذان على كلِّ حال، وفي كلِّ وقت عند الدخول ولو على آبائهم وأمهاتهم، كما فرض ذلك على الذين من قبلهم ممن ذكر في الآيات السابقة. وبلوغ الحلم للأطفال بنين وبنات بمعنى نضج الغريزة الجنسية في نفوسهم وعلامات ذلك في الذكر والأنثى مبينة في كتب الفقه. وذيل الله هذا الحكم كسابقه لتأكيد نعمته علينا بتشريع تلك الأحكام، والله أعلم.

حكم النساء المسنات في التخفيف من الثياب الظاهرة

(أ) - النص:

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿الْقَوَاعِدُ﴾: جمع قاعد، أي النساء اللاتي قعدن عن الحيض والإنجاب. ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: أي لا يطمعن في الزواج ولا

يرغب فيهن الرجال. ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾: يعني الثياب الظاهرة كالجلباب مثلا، وليس المقصود أن يتعرين بالكلية. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾: أصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من الزينة، كالقلادة والسوار والخلخل أو ما يسمّى اليوم بالتطريفة "ماكياج". ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾: أي يحتفظن بملابسهن الساترة خير من وضعها.

ج- البيان والتفسير:

الإسلام حريص على صيانة المرأة المسلمة في كل مراحل عمرها، إذ وضع لها قواعد وشرع لها آدابها لهيئتها وسلوكها وحتى لمشيئها صونا لها من الفتنة حتى لا يتعرض لها أصحاب النفوس المريضة.

ولا تقتصر فتنة المرأة على نضارة شبابها وقابليتها للإنجاب، بل وحتى في سنّ الإياس قد تحتفظ بمسحة من جمال، سيما إذا كانت طاهرة السلوك ورعة متصونة، فإذا زالت عن المرأة قابلية الإنجاب وانعدمت فيها الغريزة الجنسية، فإنها بطبيعتها لا تميل إلى التزيّن، وفي هذه الحالة رخص الله لها أن تضع ثيابها الظاهرة شريطة أن لا تتبرّج بزينة، كالحلي وأنواع التطريفة مما هو معروف قديما وحديثا،

وفي هذه الرخصة رحمة من الله لمن للتخفيف مما قد يثقل عليهن
وهن ضعيفات الأجسام.

ودفعاً لكل فتنة متوقعة حتى في مثل تلك الحالة نجد الله الحكيم
يدلهن على ما هو خير لمن في ذلك فيقول: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَّهُنَّ﴾، أي ييقين على تلك الثياب الظاهرة لأن ذلك خير لمن
وأدعى للتصون والنجاة من الفتنة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: إلهما الصفتان المناسبتان للذات العلية
في مثل هذا المقام، لأنه مما يكثر فيه حديث النفس ووساوس
الشياطين، فإذا انساق الإنسان معها ولم يراقب الله في ذلك، فإنه
يقع - لا محالة - في ما يجزر عليه المتاعب سواء كان ذلك من طرف
المرأة التي تفتن الرجل أو من طرفه هو وقد جمحت شهوته بخواطر
السوء، فإن كنت - أيها الإنسان - لا تسمع بأذنيك همسات
الخواطر فإنه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾
(غافر: ١٩). بل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا
تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦).

وكلما اشتدت مراقبتنا لله في تصرفاتنا كلما ابتعدنا عن مواطن
الشبه وتحرينا التطبيق الوفي لأحكام الله، والله أعلم.

رفع الحرج في الأكل من البيوت عن المعذورين وغيرهم

(أ) - النص:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ يَمِينُكُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَمِيزُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجُ وَالْمَرِيضُ: هم أصحاب الآفات الخلقية بفقد
البصر للأعمى، والأعرج من يشكو من آفة في رجله أو يديه،
والغالب في إطلاق الأعرج هو للمؤوف في رجله، والمريض هو
من يشكو علة في جسده. ﴿حَرَجٌ﴾: الحرج يكون بمعنى الضيق
أو الإثم. ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾: المراد هنا
هو بيوت الأبناء على اعتبار أن بيوتهم هي بيوتنا، فنحن وأبنائنا
شيء واحد. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾:

نفى الحرج عن كيفية أكلنا في جماعة أو متفرقين. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: لأن تسليمك على أخيك المسلم يكون سببا لتسليمه عليك، فكأنك بذلك تسلم على نفسك. ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾: التحية أصلها من الحياة، لأن العرب قبل الإسلام يقولون: "حيّاك الله ويّاك"، فجاء الإسلام فرفعها إلى طلب السلامة للمؤمن دنيا وأخرى بقولنا: "السلام عليكم"، وكونها من عند الله أي هي عظمة القدر، ووصفها بالطيب والبركة أي الزكاء والنماء للمسلم عليهم.

(ج) - البيان والتفسير:

يذكر في سبب النزول ما روي عن ابن عباس ؓ أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (البقرة: ١٨٨). تخرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد فهم الله تعالى عن أكل المال بالباطل، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد من أقربائه وأصدقائه ما لم يأذن له بذلك أو يدعه إلى الطعام في بيته، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾.

فقد رفع الله الحرج في الأكل من البيوت المذكورة على صنفين من الناس:

(أ) - عن المؤلفين المذكورين من العمي والعرج والمرضى وغيرهم من المعذورين أصحاب الآفات.

(ب) - عن بقية الناس في الأكل من بيوت أقربائهم وأصدقائهم ومن ائتمنهم على ماله عند غيابه. وقد ورد نفس التنفي للحرج عن الصنف الأول في سورة الفتح، غير أن السياق هناك يدل أن الحرج المنفي عنهم هو في القعود عن الخروج إلى الجهاد، وأما هنا فإن السياق يدل على أن الحرج المنفي عنهم هو نفس الحرج المنفي عمن ذكر بعدهم بدءاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾، أي هو يتعلق بالأكل من بيوت الغير، ولكن بمواصفات مضبوطة، وكان من سماحة الإسلام ومن لطف الله بعباده أن رفع ذلك الحرج في أكل الطعام بعد أن حرّم الله على المؤمنين أكل أموالهم بينهم بالباطل، وهم الحريصون على التزام الحلال والحرام في ما شرعه الله من الأحكام.

ويبدو الموقف أكثر حرجاً مع ذوي العاهات حين يكونون مع غيرهم، فأراد الله تحقيق التكامل بين أفراد المجتمع المسلم، سيما

وهؤلاء المعنورون كانوا يخلفون أصحاب الأموال في المدينة عند خروج الناس إلى الجهاد، فيحرسونها ويقومون عليها، وتدعوهم الحاجة إلى الأكل من الثمار والزروع، فهؤلاء في مقدمة من رفع الله عنهم الحرج في ذلك الأكل، بل هؤلاء على المجتمع حق في التكفل بهم لسدّ جوعتهم وتطيب خواطرهم، كما لسائر الناس الحق في الأكل من بيوتهم؟ أي هم في ذلك مثلكم، وهل يتحرج الإنسان في الأكل من بيته؟.

وقال البعض بتقدير الإضافة للأبناء أي: بيوت أولادكم، على اعتبار أن بيوتكم هي بيوتنا.

ثم ذكر المولى درجات القرابة بدءاً بالآباء والأمهات فقال: ﴿أَوْ يُيُوتُ آبَاكُمْ أَوْ يُيُوتُ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ يُيُوتُ إِخْوَانَكُمْ أَوْ يُيُوتُ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُيُوتُ أَعْمَامِكُمْ أَوْ يُيُوتُ عَمَّاتِكُمْ أَوْ يُيُوتُ أَخَوَلَكُمْ أَوْ يُيُوتُ خَالَاتِكُمْ﴾.

نجد في قمة الهرم العائلي الآباء والأمهات، إذ ليس بالضروري أن يكونوا معنا في بيت واحد كالأبناء، ثم ذكر الله من دونهم تنازلياً، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض، فهم مرتبطون بأصرة النسب يتزاورون فيما بينهم في مختلف المناسبات، ولا بدّ من

إكرام الزائر، فإذا قدم إليه أهل البيت طعاما فلا يتحرّج في الأكل منه، لأنّ الامتناع عن الأكل يلقي بالوساوس والشبهات في نفوس أهل البيت، والله يريد تحقيق التكامل والانسجام بين المؤمنين.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾: والتعبير بملكية المفاتيح تعني أولئك الأمناء الذين يخلفهم الناس على أموالهم عند الغياب للحج أو الجهاد أو الضرب في أرض الله للارتقاء، ومن واقعية الإسلام أن لا يغفل الله الصديق، لما للصداقة من حقوق لا تقل شأنًا في هذا المجال، وليس اللفظ على إطلاقه هنا، بل يعني ذلك النوع من الأصدقاء الخالص الأوفياء - وقليل ما هم - سيما إذا استشرى الشرّ والفساد، أما إذا بلغت المودة بين الأصدقاء وارتفعت الكلفة بينهم فلا حرج.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، هي رخصة من الله في كيفية الأكل، والناس على ما ألفوه في ذلك من الأكل في جماعة أو متفرقين ما التزموا بآداب الطعام.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾: وإفشاء السلام كما شرعه الإسلام هو من أقوى الوسائل في زرع بذور المحبة والوئام بين القلوب، ولذلك وصف

الله تحية الإسلام "السّلام عليكم" بأنّها مباركة طيّبة، فالّتعبير بالتّسليم على النّفس إنّما هو تجسيد لوحدة المسلمين وتعاونهم كأنّهم جسد واحد كما وصفهم الرّسول.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي بمثل ذلك البيان يرشدكم الله إلى ما ينفعكم لعلكم تعقلون، والله أعلم.

آداب الجماعة الإسلامية في اجتماعاتها مع أمرائها

أ- النص:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

ب- البيان والتفسير:

إنّما لبيان الآداب في المجتمع الإسلامي، يأتي هذا النص الكريم لبيان آداب الجماعة الإسلامية في اجتماعاتها الهامة مع حكامها وأمرائها فقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ

وَرَسُولُهُ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴿٦٢﴾

التركيز على صفة الإيمان بعدة مؤكدات أولها أداة الحصر "إِنَّمَا"، ثم ورود الازدواج في الآية، إذ جعل المؤمنين هم الذين يُسْتَأْذِنُونَ، والذين يُسْتَأْذِنُونَ هم المؤمنون، كل ذلك يدل على أهمية هذا الأدب الاجتماعي، وعلى خطورته في قضايا الأمة، كما يدل من جهة أخرى على إرباك المنافقين الجماعة في تعاونها وانسجامها، ولهذا يأتي ذلك التحذير لهم بعد سنّ الأدب المذكور.

وفي المجتمعات البشرية قد تدعو الحاجة لبحث القضايا الهامة، والتي نصفها اليوم بالقضايا المصرية للأمة، ولا بد لكل مجموعة بشرية من سراة وأعيان ممن وصفهم الله بأنهم أولوا الأمر، في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (٨٣). وقال الشاعر الحكيم:

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والرسول ﷺ يكون قمة السلطة في وقت الترتيل، وتقتدي به الأمة في ما يشرعه عن الله من أحكام أو يسنه من آداب ونظام،

والله تعالى جعل أمر المسلمين شورى بينهم، وأمر رسوله أن يشاور أصحابه في الأمر في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). فإذا دعا رسول الله جماعة المؤمنين لأمر جامع، وهو الأمر الذي يقتضي الاجتماع والتشاور في سلم أو حرب، فلا بدّ من تلبية دعوته لأنّ ذلك من مستلزمات الإيمان بالله والرسول.

وفي معنى القيادة للمجتمع يكون أولوا الأمر في مقام المسؤولية يدعون للاجتماعات التشاورية في القضايا الهامة للبتّ فيها والتزام تنفيذها بعد الإبرام والبتّ، وكان من الأدب الإسلامي الرفيع أن يلتزم الحاضرون بالمكوث ومتابعة المداولات حتى نهايتها، لأنّ القيام من الاجتماع ومغادرة المكان بغير إذن ولو كان ذلك لضرورة ملحة، خسارة وخيانة، بل أنانية تعرّض المصلحة العامة للهلاك والضياع. ولرئيس المجلس كامل الحق في مراعاة ما يضمن لذلك الاجتماع الفعالية والتجاعة، وهو أدرى بجلساته في ما يعترض لهم من أحوال، ولذا فهو مفوض تمام التفويض في الإذن لمن شاء منهم أو عدمه. قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وإذا دعت الضرورة لتغليب القضية الاجتماعية على الحاجات الفردية، بأن لا يأذن الرئيس لأحد من الحاضرين، فليس له الحق أن يتذمر من ذلك أو يسيء به الظن.

وبما أن المستأذن قد يتحایل في طلبه، أو تغلب عليه مصلحته الفردية، فإن الاستغفار لهؤلاء من رسول الله أو القائم مقامه، مطلوب في هذه الحالة استبقاء لجو الثقة، وسدّ لمسالك الظنون والشبهات، والله عليم بذات الصدور يجازي كلا على دوافعه ونواياه، والله أعلم.

ميزة دعاء الرسول عن دعوات غيره

(أ) - النص:

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَتَوَهُّ رُجِعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْشِئُهُم مِمَّا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

(ب) - التحقيق اللغوي:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾: لدعاء الرسول ثلاث احتمالات:

(أ) - هو من الدعوة لأمر هام فدعاؤه ليس كدعوة أحدكم فليس لكم خيار في استجابة دعوته.

(ب) - الدعاء بمعنى النداء أي لا تنادوه باسمه كما ينادى بعضهم بعضا.

(ج) - دعاؤه بمعنى طلبه من الله، بمعنى احذروا دعاءه عليكم لأن دعوته مستجابة.

﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾: التسلل: هو الخروج رويدا رويدا في خفية، والواذ: من الملاوذة، أي يلوذ بعضهم ببعض للتستر في الخروج.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾: التحذير: الإنذار بالعاقبة السيئة، والأمر يراد به أمر النبي أو نهيه أو الموضع الذي دعيت لأجله.

ج- البيان والتفسير:

التفاق والمراوغة شرٌّ ما تبلى به المجتمعات البشرية، وشرٌّ ما يعيق مسار الدَّعوات الصَّالحة، وقد ابتليت الجماعة الإسلامية في المدينة المنورة بتلك الفئة الضَّالة من المنافقين، وكانوا لا يقدرّون لتلك المجالس قدرها، يتحينون كلّ فرصة للاعتذار والتخلف، ويودّون أن لا تنجح في اتخاذ القرارات الحاسمة لما يعود بالنفع الجزيل على الأمّة، فبعد تركيز تلك الآداب التي يجب أن تراعى في المجالس الهامة حذر الله المؤمنين أن يستهينوا بقدر تلك المجامع، أو يصدر منهم ما ينمّ عن ضعف إيمانهم فقال جلّ من قائل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

معنى "دعاء الرسول" يترجّع للوجه الأول من الاحتمالات الثلاثة للفظ - كما تقدم - لأن السياق يقتضي ذلك، ولدعاء الرسول - وفي معناه كلّ من يلي أمر المسلمين - وزنه وقيّمته الاجتماعية، فلا يساوى بغيره من الدَّعوات، لأنه دعوة لأمر جامع لا لمصلحة ذاتية كما يقع بين الناس.

والمؤمن الوفيّ هو ذلك الذي تتحارب مشاعره وأحاسيسه مع ما يهّم المسلمين، وبالتالي لا يكون توجّهه في الحياة إلا وفق توجّه

الجماعة لا يند عنها ولا يتخلى.

ويجوز في احتمال لفظ "الدعاء" حملة على كيفية نداء رسول الله، فيتم بالتعظيم والتكريم لشخصه الكريم، فلا ينادى باسمه أو كنيته كما كان يفعل بعض الأعراب حتى نزلت في شأنهم آيات سورة الحجرات لتبين آداب نداء الرسول ومخاطبته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

فإذا كان أولو الأمر في جماعة المسلمين يتمتعون بنفس الحقوق في المعاملة والاحترام، فأني لهم أن يبلغوا مستوى رسول الله في التواضع والتلطف واللين.

فيجب أن تتوفر تلك الأخلاق في ولاية أمورنا حتى يكونوا جديرين بذلك التكريم، وهكذا يرفع الإسلام من شأن أتباعه حتى يرتقوا إلى مستوى الحضارة والتّمدن في تهذيب الحس الاجتماعي والمدني، فهل هم في حاجة إلى تقليد غيرهم في ذلك؟، كلا.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

هؤلاء هم المنافقون ممن تضيق أنفسهم بتلك المجالس فيتحنّون كل فرصة للتسلّل خفية يتستر بعضهم ببعض أو بأي شيء يخفيهم عن أعين المراقبين، ولكن الله مطلع عليهم وسيجزّيهم بما يستحقونه.

وحتى يبقى الحكم عامّا يشمل كلّ مخالف جيء بالاسم الموصول: ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، ومخالفة أمر رسول الله يعني الانحراف عن سنته وما يقتضيه في تلك المجالس من مقرّرات يصدر فيها عن شرع الله، ويحذّر الله في ذلك من أمرين:

أ- ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾: أي عذاب دنيوي، وكم لله من زواجر لتربية خلقه، ولعلّ أشدّها وطأة على المجتمعات البشرية وطأة السنين وجور السلطان، والفتنة بين الناس.

ب- ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في دار الجزاء، ويقول علماء اللغة: إن "أو" هنا هي مانعة الخلو لا الجمع، أي هؤلاء لا يعدمون أحد الجزاءين، أو هما معا.

﴿إِلَّا إِنْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

يبدو للنظرة العجلى أن التذليل جاء مناسبا للتحذير الإلهي في

آخر السّورة، أي في حقّ الذين يتسلّلون لوإذا من مجالس رسول الله، فحصر ملكية الكون في الله تعالى بتقلم الجار والمحرور: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ينفي ويطل افتراءات المتألهين ويقحمهم في عداد مخلوقات الله لا يملكون نفعا ولا ضرا.

ثم إنّ علم الله تعالى الشّامل يحيط بظواهركم وبواطنكم لا تخفى عنه خافية، وسيكشف عنها يوم تعودون إليه ليحازيكم عليها، فقله الحق ووعد الحق.

ومثل هذا التّذييل في بيان تبعات التّكليف يناسب كلّ ما ورد من أول السّورة من الآداب والأحكام وما يترتب عليها من المنافع في تنظيم حياتنا، لأنّ الوازع الإيمان هو الضّمان الأكيد للتطبيقات العملية في حياة المسلم.

فاللّهم أرنا الحقّ حقّا وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، ونعوذ بك أن يشتهب علينا أمر ديننا فتتبع فيه هوانا بغير هدى منك.

والله أعلم

مفتي

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرئسيّة....200

فهرس الأحاديث.....202

فهرس الآثار.....205

فهرس الأبيات الشعريّة.....206

فهرس الآيات والعناوين الرئيسيّة

الآية	العنوان	الصفحة
-	ترجمة المؤلف	5
-	مقدمة	7
01	میزة سورة النور وفضلها	14
02	حد الزنى وموقف المؤمنین منه	16
03	حكم الزناة	27
05-04	حدّ القذف	31
10-06	اللعان: قذف الرجل زوجته	38
18-11	قصة الإفك	44
20-19	وعید إشاعة الفاحشة	58
22-21	فضل الله على خلقه عظیم فلا یدخلوا هم بفضلهم .	62
26-23	جزاء قذف المحصنات	70
29-27	آداب الاستئذان لدخول البيوت	75
30	غضّ البصر هو صمام الأمان	85
31	حكم الحجاب، والنظر إلى زينة المرأة	90

33-32	زواج الأحرار أو استعفافهم	105
34-33	مكاتبة الأرقاء، وحكم الإكراه على البغاء	113
35	النور من أسماء الله الحسنى، تعرّف آثار الله فينا ...	121
38-36	من صفات المهتدين بنور الله	129
40-39	حال الكافرين، وخسارة أعمالهم	135
46-41	مما يرشد إلى نور الله النظر في ملكوته	143
50-47	بعض صفات المنافقين	155
52-51	فلاح وفوز المؤمنين الأوفياء	162
54-53	عود إلى بيان صفة المنافقين	165
55	التمكين للمؤمنين في خلافة الأرض وشروط ذلك	167
57-56	الذين كفروا غير معجزى الله	173
59-58	الحالات التي يجب فيها الاستئذان داخل الأسرة ..	177
60	حكم النساء المستات في التخفيف من الثياب	182
61	رفع الحرج في الأكل من البيوت عن المعذورين ...	185
62	آداب الجماعة الإسلامية في اجتماعاتها مع أمرائها	190
64-63	ميزة دعاء الرسول عن دعوات غيره	193

فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث.
110	أبرك الزواج أيسره مؤونة
41	أتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من
94	احتجبا منه
81	إذا استأذن أحدكم ثلاثا
24	ارجع فاستغفر الله
73	الأرواح جنود مجنلة فما
26	استغفروا لما عزر بن مالك
126	أعوذ بنور وجهك الذي
170	إن الله زوى لي الأرض فرأيت
41	إن الله يعلم أن أحدكما كاذب
104	إن الشيطان يجري من ابن آدم
66	إن للشيطان لمة بابن آدم فأما
89	إن النظر سهم من سهام إبليس
106	أنا وامرأة سقاء الخدين

- أما امرأة أدخلت على قوم 43
- تجهز النبي ﷺ مع بعض أصحابه 46
- تفكروا في ما خلق الله ولا تفكروا 145
- ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة 119
- ثلاثة حق على الله أن يعينهم 111
- خالفوا المجوس وخالفوا المشركين 80
- خالفوا اليهود والنصارى 80
- خذلوا عني، قد جعل الله لهن 23
- الزاني لا ينكح إلا زانية 29
- سأل رجل النبي ﷺ: أأستأذن 83
- عليك الله، أو عليك سلام الله 76
- قومي إلى هذا فكلميه، فإنه 81
- كتب على ابن آدم حفظه من الزنا 87
- كيف بهما في سواري كسرى 171
- لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم 60
- لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس 169

- 53 لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه
- 30 لا يدخل الجنة ديوث
- 27 لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن
- 180 اللهم بارك لأمتي في بكورها
- 126 اللهم لك الحمد أنت قيوم
- 102 لقد غلغلت النظر إليها يا عدو الله
- 130 ما اجتمع قوم في بيت من
- 93-74-22 ما تركت بعدي فتنة أضر على
- 82 من أطلع في دار قوم بغير إذنهم
- 69 من حلف على يمين فرأى غيرها
- 89 هكذا عنك أو هكذا، فإنما
- 160 ويلك، من يعدل إذا لم أعدل
- 96 يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض
- 23 يا علي، لا تتبع النظرة النظرة
- 112-109 يا معشر الشباب من استطاع

فهرس الآثار

الصفحة	طرف الأثر
25	ادرأوا الحدود بالشبهات (عمر)
137	الاستواء معلوم والكيف مجهول (مالك بن أنس)
96	إنما يضرب بالكثيف الذي يستر (عائشة)
8.....	علموا نساءكم سورة النور (عمر)
8.....	علموهن سورة النور (عائشة)
141	الكافر يتقلب في خمس من الظلمات (أبي بن كعب)
98	ما رأيت منه ولا رأى مني (عائشة)
158-134	ما وقر في القلب وصدقه العمل (الحسن)
119	متى استعبدتم الناس وقد ولدنهم (عمر)
105	لو أدرك رسول الله ما أحدث النساء (عائشة)

فهرس الأبيات الشعرية

الصفحة	صدر البيت
154	وإذا حلت الهداية قلبا
164	أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا
122	فإن الله قد ضرب الأقل لنوره
20	دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
73	ضاق فجاج الأرض منهم بالخنا
73	عبر الأثير إلى الخلائق كلها
86	غضّ البصر إنك من نمر
136	فلما كففنا الحروب كانت عهدهم
164	كلهم يعبدون من خوف نار
122	لا تنكروا ضربي له مثلاً
164	ليس لي في الجنان والنار حظ
68	ومن يك ذا فضل فيخل بفضله
88	نظرة فابتسامة فسلام
144	يا أخا البدر سناء وسنا

